١٩١٩

حكايات الثورة والثوار

عماد أبو غازي

دار الشروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

حكايات الثورة والثوار
١٩١٩

عماد أبو غازي

عن الكتاب..

في قلب القاهرة عام ٢٠٠٥ نصحب خالد الفتى الذي يعيش مع جدته ذات الصيت الذائع في السحر وفك الأعمال..

خالد مصاب بمرض أعراضه أشبه بالصرع والكل يتهامس أنه لعنة من شياطين الجن..

خالد لا يهتم لما يقال فطالما كان بعيد كل البعد عن عما تمارسه جدته، حتى تظهر أمه في يوم طالبة العون من الجدة في لغز اختفاء قريب لهم لم يترك خلفه سوى مجموعة من الطلاسم الشيطانية الآن يهتم خالد، الآن يسأل والآن يرى أنه برغم كل شيء لا يستطيع أن يبقى بعيدا عما يجري في دمه..

سيحاول وحده أن يفك طلاسم شيطانية ويحل لغز اختفاء قريبه وربما يواجه شيطان أو أثنين..

حسنًا لن يكون وحده تمامًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«بالتأكيد إن هذه الثورة واحدة من أجمل الثورات في التاريخ؛ لقد كانت عفوية سببتها سياسة الخنق المنظَّم ضد شعب من أربعة عشر مليون نسمة، مجمع كله على حقه في الاستقلال والحرية؛ هذه الكلمات القليلة «سياسة الخنق المنظَّم» تلخِّص وحدها كلّ الأسباب البعيدة والقريبة للثورة. وإذا كان من الضروري أن نضع خطًّا فاصلًا بين الأسباب البعيدة والقريبة فإن سنة ١٩١٤ هذا الخطّ الفاصل؛ ذلك أنها السنة التي أعلنت فيها - بشكل غير شرعي - هي الحماية البريطانية».

محمد صبري السوربوني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقديم

في ٢٠١٩ مرَّت الذكرى المئوية الأولى للثورة المصرية الكبرى؛ ثورة ١٩١٩؛ الثورة التي بدأت مقدمتها الفعلية يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨، وجاءت النهاية مع نهاية عام ١٩٢٣ بإجراء الانتخابات العامة وفقًا لدستور ١٩٢٣، واكتملت فصولها في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ مع تشكيل حكومة الشعب؛ حكومة سعد زغلول الأولى والأخيرة؛ لتبدأ بعدها مرحلة جديدة في تاريخ مصر مستندة إلى المنجز الذي حققته الثورة، لكنها في الوقت ذاته قائمة على توازن القوى بين طرفي الصراع على الساحة المصرية؛ تيار الثورة يقوده الوفد المصري من ناحية وسلطات الاحتلال البريطاني والملك ومعهما أحزاب وساسة موالون للملك والاحتلال من ناحية أخرى، وبينهما أحزاب الأقلية التي تتأرجح مواقفها في الصراع بين القطبيْن الرئيسيْن. لقد انتهت هذه الحقبة بنجاح حركة الضباط الأحرار فجر يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢؛ وإن كانت لهذا اليوم أيام تسبقه وأيام تليه أنهت مرحلة ثورة ١٩١٩ شبه الليبرالية؛ فيوم ٢٦ يناير ١٩٥٢، يوم احترق قلب القاهرة، دُقَّ المسمار الأول في نعش تلك المرحلة؛ ويوم ٢٩ مارس ١٩٥٤ كانت الهزيمة الكاملة لتجربة الديمقراطية المنقوصة في مصر.

وحكاية ثورة ١٩١٩ هي صفحة من كتاب الوطن؛ صفحة مضيئة من تاريخ مصر، قدَّم فيها المصريون آلاف الشهداء والجرحى خلال شهر واحد؛ وقدموا نماذج ملهمة للعمل الثوري على مدى خمس سنوات هي عمر الثورة بجميع مراحلها.

لقد كانت ثورة ١٩١٩ تتويجًا لنضال طويل متواصل للمصريين أخذت أهدافه تتبلور تدريجيًّا منذ ثورة المصريين في يولية سنة ١٧٩٥ ضد طغيان أمراء المماليك. لقد سارت تلك الأهداف في اتجاه أساسي: انتزاع حق المصريين في إدارة أمور بلادهم بأنفسهم، أو ما عبرت عنه الحركة الوطنية المصرية منذ سبعينيات القرن التاسع عشر وصاغته في شعار «مصر للمصريين»؛ ذلك الشعار الذي تحوَّل منذ مطلع القرن العشرين إلى مطلبيْن محدديْن: الاستقلال والدستور، وكان المطلبان هدفيْن كبيريْن لثورة ١٩١٩.

في هذا الكتاب أقدِّم بعضًا من حكايات الثورة والثوار، إنه ليس تأريخًا للثورة لكنه سردٌ لبعض الحكايات المرتبطة بالثورة التي غيَّرت وجه مصر إلى حين؛ الثورة التي أرست فكرة القومية المصرية بشكل مكتمل للمرة الأولى؛ حكايات نشرتُ بعضها متفرقًا من قبل، وجمعتُ بعضها الآخر في «حكاية ثورة ١٩١٩» منذ عشر سنوات مضت، وأضفتُ إليها حكايات جديدة، فما زال هناك جديدٌ في حكايات الثورة المصرية.

عماد أبو غازي
القاهرة - ٣١ من ديسمبر ٢٠١٩

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مشهد افتتاحي قبل الثورة

في سنة ١٩١٤ قامت الحرب العالمية الأولى ودخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا، ضد إنجلترا وفرنسا، فأعلنت إنجلترا الحماية على مصر وأنهت علاقتها بالدولة العثمانية؛ تلك العلاقة التي استمرت ٤٠٠ سنة تقريبًا منذ احتلَّ سليم الأول مصر في مطلع عام ١٥١٧.

استمرَّت الحرب لأربع سنوات عانت فيها مصر التي كانت خاضعة لسلطة الاحتلال البريطاني منذ عام ١٨٨٢ شدائد جديدة فوق شدة الاحتلال؛ فمع اشتعال الحرب سنة ١٩١٤ فرضت الأحكام العرفية على البلاد، وأعلنت الحماية البريطانية رسميًّا، كما جمع الإنجليز عشرات الآلاف من المصريين وحشدوهم حشدًا ليشاركوا في الحرب، هذا فضلًا عن أن بعض المعارك بين الحلفاء وخصومهم دارت على أرضنا. وفي أواخر عام ١٩١٨ لاحت في الأفق بوادر انتهاء الحرب، وفي ١١ نوفمبر عقدت الهدنة بين ألمانيا والحلفاء، لتنتهي أكبر حرب عرفتها البشرية حتى ذلك الوقت، ولتخرج إنجلترا وحلفاؤها منتصرين بعد أربع سنوات من الحرب الضارية التي قامت بين الدول الاستعمارية الأوروبية من أجل اقتسام النفوذ؛ الحرب التي سميت وقتها الحرب العظمى، ونطلق عليها اليوم الحرب العالمية الأولى، والتي كان لها تأثير بالغ في تاريخ مصر الحديث، على الرغم من أن مصر لم تكن طرفًا أصيلًا في تلك الحرب.

أربع سنوات تفصل بين إعلان الحرب وإعلان الهدنة، كانت سنوات قد اختمرت فيها الثورة؛ الثورة الشعبية الكبرى في تاريخنا الحديث؛ ثورة ١٩١٩ التي نحتفل بعيدها المئوي.

في نوفمبر سنة ١٩١٨ كانت البداية، لكن قبل يوم البداية لا بد من العودة إلى الوراء قليلًا لنرى كيف جاءت تلك البداية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خضعت مصر للاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢، وكما قال المؤرخ المصري الرائد محمد صبري السوربوني في كتابه عن ثورة ١٩١٩:

«لقد كانت مصر عشية الاحتلال الإنجليزي ولاية تركية لا تتمتع فحسب بحكم ذاتي تام طبقا لوضعها السياسي الذي تحدد بموجب معاهدة لندن سنة ١٨٤٠، ولكن أيضًا باستقلال ذاتي خارجي بموجب فرمانات أعلنت بعد ذلك. إن مصر لم تتخل قط عن حقوقها التي صدقت عليها القوى الكبرى رسميًا وناضل المصريون دائما حمايتها، بل اكتساب حقوق أخرى؛ ولذلك قاموا بثورة ١٨٨١، لقد اعترف اللورد كرومر نفسه بأن هذه الثورة الأولى كانت وطنية تحررية؛ إلا أن ذلك لم يمنع إنجلترا من أن تحتل البلاد عسكريًا بالحجة الأبدية إعادة النظام».

٦ من أجل وعلى الرغم من أن القوة الحقيقية في مصر بعد الاحتلال كانت للمعتمد البريطاني لكن الوضع القانوني للاحتلال ظل مخلخلا؛ بسبب تبعية مصر من الناحية الرسمية للدولة العثمانية، وبسبب ضغوط الدول الأوروبية المنافسة لبريطانيا. وفي عام ١٩٠٤ استقرَ وضع الاحتلال إلى حد كبير بعد الوفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا؛ ذلك الوفاق الذي تمَ بمقتضاه الاتفاق بين الدولتين الاستعماريتين الكبيرتين على تحديد مناطق النفوذ بينهما، والذي جاء فيه فيما يتعلق بوضع مصر النص التالي:

«إن حكومة جلالة الملك (ملك بريطانيا) تصرح بأنها لا تقصد تغيير الحالة السياسية في مصر، وحكومة الجمهورية الفرنسية تصرح بأنها لا تعترض عمل بريطانيا العظمى في مصر، لا بطلب تعيين أجل للاحتلال ولا بأمر آخر». وسرعان ما انضمت حكومات ألمانيا والنمسا وإيطاليا إلى الاتفاق؛ وبذلك أصبحت بريطانيا مطلقة اليد في مصر، خصوصًا أن السلطان العثماني الحاكم الشرعي» لمصر لم يكن بقادر على التصدي لبريطانيا أو مواجهتها، فضلًا عن أنه كان قد ساعدها في احتلالها للبلاد قبل ذلك بأكثر من عشرين سنة؛ عندما أصدر فرمانًا بعصيان أحمد عرابي سنة،١٨٨٢، في أثناء المعارك بين القوات البريطانية الغازية والجيش المصري بقيادة عرابي مدعوما بالمساندة الشعبية. في السنوات التي أعقبت الوفاق الودي تحول التياران الرئيسان في الحركة الوطنية المصرية إلى حزبين حزب الأمة والحزب الوطني، وكان للحزبين الفضل في تمهيد الأرض للثورة، فكما يقول المؤرخ الراحل الدكتور عبد العظيم رمضان كتابه المهم «تطور الحركة الوطنية في مصر»:

في وبمعنى وواضح أن «إذا كان الحزب الوطني قد غرس في تلك الحقبة من تاريخ مصر بذرة الكراهية للاحتلال ومقاومته في نفوس الشعب، فإن حزب الأمة قد ثبت بدوره أسس القومية المصرية وألقى بذور الاستقلال عن كل من تركيا وبريطانيا، آخر أنه بينما كان عمل الحزب الوطني قائمًا على هدم الاحتلال، كان عمل حزب الأمة قائمًا على بناء أسس مصر الحديثة المستقلة، العمليتين: الهدم والبناء يكمل كل منهما الآخر». لقد مهد الحزبان الأرض فأثمر زرعهما الثورة. في ١٩١٤ نشبت الحرب في أوروبا بين معسكرين؛ بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا في جانب، وألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا ثم تركيا في الجانب الآخر. بدأت المعارك فى أغسطس بعد اعتداء ألمانيا على بلجيكا، وتصاعدت المعارك بطول أوروبا،وعرضها، وامتدت إلى منطقة المشرق العربي والمستعمرات، وكانت أول حرب في تاريخ الإنسانية تمتد بهذا الاتساع.

كانت مصر بين نارين في هذه الحرب فعلى أرضها قوات الاحتلال البريطاني منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وفي نفس الوقت هي ولاية تابعة لتركيا من الناحية الرسمية، وتنازع رجال السياسة في مصر اتجاهان: الأول يراهن على انتصار ألمانيا واهما أن هذا الانتصار سيقود إلى استقلال مصر، أما الاتجاه الثاني فكان يؤمن بانتصار الحلفاء ويرى في بريطانيا شرًا أهون من شر. كما كان هؤلاء يتصورون أن مساندة مصر لبريطانيا العظمى في الحرب سيدفع بريطانيا إلى تقدير هذه المساعدة، وسيؤدي إلى منح مصر استقلالها. أما الموقف العام للشعب المصري فكان كاشفًا فلم تشهد سنوات الحرب مقاومة للاحتلال سوى في بعض العمليات الصغيرة لأعضاء الحزب الوطني وأنصاره، لدرجة دفعت القيادة البريطانية إلى سحب جزء من القوات المخصصة لتأمين الجبهة الداخلية إلى جبهة القتال عندما استشعرت أن الأمور آمنة.

في الداخل

مع بداية الحرب في أغسطس ١٩١٤ أعلن مجلس النظار برئاسة حسين رشدي باشا منع منع التعامل مع ألمانيا ورعاياها، ومنع السفن المصرية من الاتصال بالموانئ الألمانية واحتجاز السفن الألمانية في الثغور المصرية، ومنح القوات البريطانية حقوق الحرب في الأراضي والمياه المصرية.

وفي ٢ نوفمبر ١٩١٤ أعلن الجنرال ماكسويل قائد جيش الاحتلال في مصر وضع القطر المصري تحت الحكم العسكري، وفرضت الرقابة على الصحف نتيجة لإعلان الأحكام العرفية.

يوم ١١ نوفمبر ١٩١٤ أصدر الخديو عباس حلمي الثاني من استنبول منشورا إلى الأمة بإعلان الدستور الكامل في مصر؛ بناء على نصيحة من محمد فريد رئيس الحزب الوطني الذي كان يعيش في منفاه الاختياري بعيدا عن الوطن. والحقيقة أن نية عباس من الإعلان كانت حشد الشعب المصري خلف الدولة العثمانية، ومحاولة الحصول على تأييد المصريين للزحف التركي على البلاد. وفي ١٨ ديسمبر ١٩١٤ أعلنت بريطانيا الحماية على مصر، وأنهت علاقتها بالدولة العثمانية، وعزلت الخديو عباس حلمي الثاني، وحولت مصر إلى سلطنة وعينت حسين كامل سلطانا على البلاد تحت الحماية البريطانية، وأعادت علم مصر في زمن الخديو إسماعيل علمًا للبلاد؛ العلم الأحمر بالأهلة الثلاثة والنجوم الثلاثة، والذي كانت سلطات الاحتلال قد ألغته في عام ١٨٨٢ واستخدمت العلم العثماني بدلا منه.

في وعلى الرغم من أن الحرب كانت بين القوى الاستعمارية الأوروبية الكبرى ذلك الوقت، فإن مصر اكتوت بنارها وكانت ساحة من ساحاتها العسكرية. فعلى أرض سيناء وجبهة قناة السويس اندلعت المعارك بين القوات البريطانية التي كانت تحتل مصر منذ عام ١٨٨٢ والقوات التركية التي كانت تعتبر مصر جزءًا من الدولة العثمانية منذ أربعمائة سنة سابقة على هذا التاريخ، وقد شاركت وحدات من الجيش المصري في المعارك إلى جانب الجيش البريطاني؛ فشارك سلاح المدفعية المصرية في التصدي للقوات التركية عند قناة السويس، وساهم في تحقيق الانتصار عليها، واستشهد في الموقعة الملازم أول أحمد حلمي قائد بطارية المدفعية المصرية.

كذلك عانى المصريون من وطأة الأحكام العرفية التي فرضتها قوات الاحتلال على مصر، كما عانوا كذلك من تسخيرهم وتسخير موارد البلاد وثرواتها لخدمة المجهود الحربي البريطاني؛ فصادرت سلطة الاحتلال دوابهم ومحاصيلهم، وحملت عشرات الآلاف من المصريين قسرًا للعمل عمالا في الخطوط الأمامية لجبهات القتال في أوروبا وفي الشرق وسقط منهم من سقط في ساحات المعارك شهيدًا في معركة لا تخصه وهي الحالة التي عبرت عنها ببلاغة كلمات أغنية «يا عزيز عيني» التي لحنها وغناها سيد درويش، وقد عاد من هؤلاء من عادوا محملين بخبرات جديدة وبأفكار ثورية. ومن جانب آخر تحملت الخزانة المصرية ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه دعمًا لبريطانيا العظمى في حربها؛ كما فرضت القيود على السوق المصرية لصالح الرأسمالية البريطانية، وأدت السياسات البريطانية إلى إفقار المصريين، ودفعت هذه السياسات معظم المصريين بمختلف طبقاتهم إلى التوحد ضدها.

لقد تحمل المصريون هذه المعاناة تحت ضغط الجبروت العسكري لجيوش الاحتلال وكلهم أمل في أن تزول الغمة، وأن ينتهي الاحتلال البريطاني لمصر مع نهاية الحرب مثلما انتهى الحكم العثماني مع بدايتها.

أواخر عام ١٩١٨ لاحت في الأفق بوادر انتهاء الحرب، وكانت بلغاريا ول دولة تلقي بالسلاح، وأعقبتها تركيا التي وقعت الهدنة مع بريطانيا هي وحلفائها يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٨، وفي ١١ نوفمبر من نفس العام عقدت الهدنة بين ألمانيا والحلفاء، لتنتهي أكبر حرب عرفتها البشرية حتى ذلك الوقت، ولتخرج إنجلترا وحلفاؤها منتصرين.

وقبل إعلان الهدنة بساعات تقدم سعد زغلول باشا الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية، وزميلاه في الجمعية عبد العزيز فهمي بك وعلى شعراوي باشا بطلب لمقابلة السير ريجنالد ونجت المندوب السامي البريطاني لطلب الترخيص لهم بالسفر إلى لندن لعرض مطالب الأمة المصرية ورفضت سلطات الاحتلال بتعال السماح بسفر الوفد الذي يمثل الأمة إلى لندن أو باريس للتفاوض من أجل الاستقلال، بل بلغ الصلف البريطاني حد رفض السماح بسفر رئيس الوزراء إلى خارج البلاد، واستمرت الأحكام العرفية والرقابة على الصحف وحجب الاخبار ومنع الاجتماعات العامة؛ هنا كانت البداية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول الثورة أيام وحكايات

كان المفجر المباشر للثورة القبض على سعد زغلول وعدد من رفاقه ونفيهم ٨ اليوم إلى مالطة يوم ٨ مارس ١٩١٩. فعندما تسرب الخبر انفجرت الثورة في التالي مباشرة؛ يوم ٩ مارس. انفجر بركان الغضب المكبوت ليطيح بنظام قديم وقيم قديمة ويرسي أسس عصر جديد من السعي نحو الاستقلال التام والديمقراطية، لتبدأ حلقة جديدة من حلقات نضال المصريين من أجل الحرية. لكن البداية الفعلية لثورة ١٩١٩ كانت بذلك الذي حدث يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨، ويمكن أن نعتبر أن نهايتها الحقيقية جاءت مع تشكيل حكومة سعد زغلول في ٢٨ يناير ١٩١٤. فمعها حكمت الثورة، وتحولت إلى دولة، مهما كانت القيود عليها من الملك المستبد وسلطات الاحتلال؛ فقد مارست الثورة الحكم، لمدة عشرة أشهر بها ما بها من إنجازات، ولكن أيضًا كان بها ما بها أخطاء وخطايا، وربما تستحق تجربة حكومة سعد زغلول الوحيدة كتابًا آخر؛ فهذا كتاب الثورة وأيامها وحكاياتها.

من إننا أمام خمس سنوات وعدة أسابيع من الحراك الثوري الممتد، قرابة ١٩٠٠ مليئة بالأحداث، بلحظات المد والجذر، وطوال مرحلة الثورة أظهرت كل يوم الأشكال النضالية وفقًا لما أملته الظروف فقد لجأ المصريون إلى أشكال الاحتجاج السلمي كجمع التوقيعات على العرائض والخطابات المفتوحة للسلطات وللمجتمع الدولي والإضرابات والاعتصامات والتظاهر السلمي والمقاطعة بما فيها حملات مقاطعة البضائع الأجنبية، كما لجأ الثوار إلى الأشكال العنيفة كقطع السكك الحديد وخطوط التلغراف والطرق البرية، والأعمال المسلحة المختلفة ضد قوات الاحتلال، وأبدعت الثورة سنة ١٩١٩، وفي ذروة الأحداث، شكلًا نضاليًا جديدًا تمثل في إعلان استقلال بعض المدن وإدارتها إدارة ذاتية وأشهرها جمهورية زفتى.

وخلال هذه السنوات الخمس كانت هناك بعض الأيام التي شكلت علامات فاصلة في مسار الثورة، وشكل كل يوم منها حكاية من حكاية الثورة، وفي هذا الفصل اخترت بعض هذه الحكايات لأقدمها محاولا أن أتتبع من خلالها حكاية ثورة ١٩١٩.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١- يوم١٣نوفمبر... يوم تغير فيه التاريخ

عندما نقف أمام تمثال سعد زغلول القائم في محطة الرمل بالإسكندرية، سنشاهد جداريتين من النحت البارز على جانبي قاعدة التمثال، تجسدان بعض الأحداث الفارقة التي شهدتها ثورة ١٩١٩.

لقد كلفت الحكومة الائتلافية محمود مختار عقب وفاة سعد زغلول في أغسطس سنة ١٩٢٧ بعمل تمثالي ميدان لسعد؛ واحد في القاهرة والآخر في الإسكندرية في سياق خطة إحياء ذكرى سعد، وفكر مختار في أن يجعل من التمثالين ملحمة نحتية تؤرخ للثورة وأحداثها وقيمها ومبادئها، لا مجرد تمثالين شخصيين لسعد؛ فاستخدم قاعدتي التمثالين لتحقيق هدفه.

وفي تمثال الإسكندرية سجل مختار في واحدة من الجداريتين ما حدث يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨؛ إنه يوم يحمل ذكرى مناسبة وطنية من أهم المناسبات في تاريخنا الحديث إنها ذكرى ذلك اليوم الذي عرفه المصريون لسنوات باسم عيد الجهاد الوطني، وهي المناسبة التي ظلت مصر كلها تحتفل بها منذ عام ١٩١٩ حتى توقف هذا الاحتفال في عام ١٩٥٣. ولهذا اليوم قصة ودلالات في تاريخ مصر تستحق أن تعرفها الأجيال وتعيها، لقد كان يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ حدثا من الأحداث الفارقة في التاريخ المصري، كان ذلك اليوم بمثابة نقطة الانطلاق لثورة ١٩١٩؛ لقد كان اليوم يوما تغير فيه وجه التاريخ في مصر، كان يومًا له ما بعده؛ فما الذي حدث في هذا اليوم؟ كان المصريون ينتظرون نهاية الحرب حتى تنتهي معاناتهم من حرب لم يكونوا طرفا فيها كانت آمال المصريين تستند إلى ما قدموه من دعم لبريطانيا أثناء الحرب، كما كانت تستند إلى الوعد البريطاني، فقد جاء في رسالة الحكومة البريطانية إلى السلطان حسين كامل عند تنصيبه مكان الخديو عباس حلمي الثاني: «قد أصبح من الضروري الآن وضع شكل للحكومة التي ستحكم البلاد بعد تحريرها»، كما تضمنت وعدًا بالنظر في نظام الامتيازات الأجنبية بعد انتهاء الحرب. ومع اقتراب نهاية الحرب بدأ التفكير جديا في نظام جديد لإدارة البلاد، وقد وضع بالفعل السير وليم برونيت المستشار المالي البريطاني مشروعًا لقانون نظامي لمصر، لكن النخبة السياسية المصرية رفضته تماما لأنه وضع مصر في مرتبة المستعمرات وحرمها من مجلس تشريعي منتخب، وكان أول من تصدى للمشروع حسين باشا رشدي رئيس الحكومة.

وفي عام ١٩١٨ أعلن الرئيس الأمريكي ويلسون مبادئه الأربعة عشر تضمنت حق تقرير المصير للشعوب، وقد أحيت هذه المبادئ الآمال في نفوس المصريين؛ فقد تصوروا أن الدول المنتصرة سوف تلتزم بهذه المبادئ وتعمل بها بعد نهاية الحرب.

أثناء الحرب ومع نهاية الحرب حدث ما لم يكن في الحسبان وما لم تكن تتوقعه سلطات الاحتلال التي تصورت واهمة أن الهدوء الذي خيم على البلاد في كان خنوعًا من المصريين وقبولا للاحتلال فقبل أن تنتهي الحرب اتفق سعد باشا زغلول الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية وزعيم المعارضة بها وزميلاه عبد العزيز فهمي بك وعلي شعراوي باشا على أن يطلبوا من دار الحماية تحديد موعد لهم ليقابلوا السير ريجنالد ونجت المعتمد البريطاني في مصر.

وقبل أن تعلن الهدنة بساعات تقدم سعد ورفيقاه يوم الاثنين ١١ نوفمبر بطلبهم إلى دار الحماية بوساطة من حسين باشا رشدي رئيس الوزراء، فاستجابت دار الحماية لطلبهم وحددت لهم موعدا يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ١٩١٨ الساعة الحادية عشرة صباحًا.

لا وبالفعل ذهبوا إلى دار المعتمد البريطاني وهو الحاكم الفعلي للبلاد، وقابلوه ودار بينهم حوار طويل استمر لمدة ساعة؛ طالبوا فيه بإنهاء حالة الأحكام العرفية والسماح لوفد يمثل المصريين بالسفر إلى لندن لمناقشة استقلال مصر. وكان رد المعتمد البريطاني السير ونجت الرفض القاطع على أساس أنهم يحملون أي صفة تتيح لهم تمثيل مصر أو الحديث باسم المصريين. وقد أورد المؤرخ عبد الرحمن الرافعي في كتابه عن ثورة ١٩١٩ نصا للحوار الذي دار بين الزعماء الثلاثة والمندوب السامي البريطاني؛ حيث طالب سعد زغلول بإلغاء الأحكام العرفية وإنهاء مراقبة الصحف والمطبوعات، تلك الرقابة التي ضاق بها المصريون. وقال سعد: «المصريون لهم الحق في القلق على مستقبلهم»، وعندما رد عليه ونجت مطالبًا إياه والمصريين بعدم التعجل والنظر في العواقب البعيدة، علق سعد على مقولة ونجت بأنها عبارة مبهمة غير مفهومة.

وقد وجه ونجت في أثناء الحديث انتقادات لمحمد فريد ورجال الحزب الوطني، وأوضح علي شعراوي باشا دوافع الحزب الوطني في اتخاذ المواقف المتشددة.

وقال: «نريد صداقة الحر للحر.. لا العبد للحر».

عندها قال ونجت في استنكار: إذًا فأنتم تريدون الاستقلال» .....

فرد سعد: ونحن أهل له» .... حاول ونجت أن يقلل من شأن الشعب المصري ومن قدرته على حكم نفسه بنفسه؛ مرة بالتأكيد على ضرورة التدرج في الاستقلال، ومرة ثانية بحجة عدم أهلية المصريين، ومرة ثالثة بدعوى أمية، المصريين ومرة رابعة بالإشارة إلى موقع مصر الذي يجعلها مطمعا للطامعين.

فقند الزعماء الثلاثة دعواه الواحدة بعد الأخرى، وأكد عبد العزيز بك على مطالب الأمة قائلًا: «نحن نطلب الاستقلال التام» ... وأكد على للحزب الوطني وحزب الأمة هدفًا واحدًا وطريقين مختلفين للوصول إليه. بعد أن انتهى اللقاء توجه الزعماء الثلاثة إلى وزارة الداخلية لمقابلة حسين رشدي باشا في مكتبه بالوزارة وأبلغوه بما دار في اللقاء. وكان رشدي باشا قد أعد في نفس اليوم خطابًا للسلطان أحمد فؤاد يستأذنه فيه السماح له ولعدلي يكن باشا بالتوجه إلى لندن؛ للسعي نحو تحقيق استقلال مصر.

وفي نفس اليوم أيضًا، التقى رشدي بالسير ونجت، فتساءل الأخير: كيف يتحدث ثلاثة رجال باسم الأمة؟

لقد تصور ونجت أن الأمر انتهى عند هذا الحد، لكن ما حدث بعد ذلك كان ما لم يتوقعه ونجت ولا حكومة بريطانيا العظمى التي يمثلها، ولا سلطان البلاد الجديد السلطان أحمد فؤاد الذي عينه الإنجليز قبلها بشهور بعد وفاة رجلهم السلطان حسين كامل.

لقائه مساء ١٣ نوفمبر ١٩١٨ وبعد أن علم سعد من رشدي باشا بما دار في مع ونجت؛ اجتمع مع رفيقيه للتشاور في أسلوب يثبت جدارتهم بتمثيل الأمة وحقهم في التحدث باسمها، فاتفقوا على تأليف هيئة تسمي الوفد المصري؛ إشارة إلى أنها وفد مصر للمطالبة باستقلالها كما اتفقوا على أن يعملوا على أن تحصل هذه الهيئة على توكيلات من الأمة تمنحها بمقتضاها هذه الصفة. وكان رد فعل الشعب المصري ردًا إيجابيًا على دعوة سعد وأعضاء الوفد، كشف موقف المصريين عن روح الثورة التي ظلت كامنة لسنوات في نفوسهم لقد بدأت حملة لجمع التوقيعات على توكيل من أفراد الشعب المصري فردا فردا لسعد زغلول ورفاقه ليكونوا وكلاء عن الأمة المصرية، وليشكلوا وفدًا يمثل مصر وشعبها ويسعى من أجل الحصول على الاستقلال لمصر وعلى اعتراف المجتمع الدولي

بهذا الاستقلال. وخلال أسابيع قليلة اتسعت حملة جمع التوقيعات وشملت جميع طوائف الأمة وطبقاتها، وظهرت وحدة المصريين حول هدف واحد، وأصبح اسم الوفد «المصري» تعبيرًا عن طموح المصريين نحو استقلال بلادهم، وفشلت كل محاولات الإنجليز ورجالهم في نظارة الداخلية في وقف حركة التوكيلات.

لقد قدمت حركة جمع التوكيلات نموذجًا في النضال الوطني السلمي القانوني والسياسي؛ فعلى الصعيد القانوني أعطى التوكيل مشروعية للوفد في تمثيل الأمة. وعلى الصعيد السياسي وفرت حركة جامعي التوقيعات فرصة أمام أنصار الوفد للاتصال بالجماهير وشرح القضية، ومن ناحية أخرى كان التوكيل بمثابة عقد التزام ووكالة واتفاق بين الوفد وجماهير الشعب يحدد أهداف النضال ويقيد إمكانات التنازل، فظل يشكل قيدًا على كل محاولة للتفريط في حقوق الأمة في المفاوضات السياسية مع بريطانيا، ويلزم القيادة بعدم الخروج عن حدود الوكالة، وقد ظهر ذلك جليًا عندما قبل سعد زغلول تشكيل الوزارة بعد الانتخابات البرلمانية التي اكتسحها الوفد عقب صدور دستور ١٩٢٣. لقد ردَ سعد على الملك فؤاد في خطاب قبوله تشكيل الوزارة معلنًا أنه يقبل تشكيل الوزارة في حدود الشروط التي تقبلها الأمة.

لقد كانت البداية من ذلك الحدث الذي وقع يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ١٩١٨؛ لذلك اعتبر المصريون هذا اليوم عيدًا للجهاد الوطني ظلوا يحتفلون به كل عام، وفي احتفالهم إرساء لقيم ومبادئ مهمة تشكل دلالات هذا اليوم؛ أولها أن الأمة هي مصدر السلطات وهي التي تفوض قادتها في تمثيلها وتحاسبهم على ما يفعلون. وثانيها أن مصر كيان مستقل قائم بذاته؛ فلا هي مستعمرة بريطانية ولا هى ولاية عثمانية وثالثها أن المصريين أمة واحدة لا فرق بينهم على أساس دين أو عقيدة أو جنس، تربط بينهم الرابطة الوطنية قبل الرابطة الدينية ورابعها أن استقلال مصر السياسي لا يتحقق بمعزل عن حرية المواطنين واحترام حقوقهم؛ والجدارية القائمة على قاعدة تمثال سعد في الإسكندرية تسجل هذا الحدث. لقد كان يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ١٩١٨ يوم ميلاد فكرة الوفد المصري أكبر وأهم أحزاب الموجة الحزبية الثالثة في تاريخ مصر، كما كان اليوم نقطة الانطلاق نحو ثورة١٩١٩، كان يومًا تغير فيه وجه التاريخ في مصر، كان يوما له ما بعده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢- ٢٣ نوفمبر وميلاد الوفد المصري

استغرق تأسيس هيئة الوفد المصري عشرة أيام بين ١٣ و٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٨، وتألف الوفد في تشكيله الأول يوم ١٣ نوفمبر برئاسة سعد زغلول باشا وعضوية علي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك وعبد اللطيف المكباتي ومحمد علي علوبة بك، وكانوا جميعًا أعضاء في الجمعية التشريعية باستثناء محمد محمود وأحمد لطفي علي السيد، كما كان أغلبهم من الميالين لتيار حزب الأمة باستثناء محمد علوبة عضو اللجنة الإدارية للحزب الوطني وعبد اللطيف المكباتي المؤيد لتيار الحزب الوطني، واتفق أعضاء الوفد على قانونه الذي تضمنت مادته الأولى أسماء أعضاء الوفد، ونصَت مادته الثانية على أن مهمة الوفد هي السعي بالطرق السلمية المشروعة، حيثما وجد للسعي سبيلا، في استقلال استقلالا تاما، مصر وقررت المادة الثالثة من القانون أن الوفد يستمد قوته من رغبة أهالي يعبرون عنها رأسًا أو بواسطة من يمثلونهم بالهيئات النيابية، كما أشار القانون في مادته الثامنة إلى أن للوفد أن يضم إليه أعضاء آخرين؛ الأمر الذي حدث بالفعل خلال الأيام والأسابيع التالية، وقد صدَق الأعضاء على قانون الوفد في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٨.

مصر التي لم يكن الوفد المصري بهذه الصورة التي بدأ بها حربًا بالمعنى الدقيق للكلمة، فقد عرفت مصر الأحزاب السياسية بشكل جنيني في سبعينيات القرن التاسع عشر، ثم عرفت التشكيلات الحزبية المكتملة في العقد الأول من القرن العشرين بتأسيس حزب الأمة والحزب الوطني وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية، بالإضافة إلى عدد من الأحزاب الصغيرة الأخرى، ولم يكن الوفد عندما قام حزبا على شاكلة هذه الأحزاب كان تجمعا من الساسة حول هدف واحد محدد وبرنامج من نقطة واحدة هي السعي من أجل استقلال مصر استقلالًا تامًا.

و عندما تأسس الوفد كان الحزب الوطني لا يزال قائما على الرغم من ملاحقة سلطات الاحتلال لقادته في أثناء الحرب وكان رجال حزب الأمة قد تحولوا إلى الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والثقافية بعد إغلاق جريدة الحزب سنة ١٩١٥، وتحول بعض شبابهم إلى الكتابة في مجلة السفور، وعقب الحرب وتأسيس الوفد شكل مجموعة من هؤلاء الشباب الحزب الديمقراطي المصري، وحاولوا الانضمام للوفد، لكن مسعاهم لم يكلل بالنجاح فلم يكونوا قد أعلنوا عن حزبهم بشكل رسمي بعد، ولم يقبلهم سعد في الوفد على الرغم من قربهم من تيار حزب الأمة سياسيا وفكريا وانتمائهم بدرجة أو بأخرى إلى مدرسته. ولتأليف الوفد المصري قصة تثير الخلاف بين الساسة والمؤرخين حول صاحب فكرته؛ لقد تعرض كثير من الساسة والمؤرخين لقضية صاحب فكرة تأليف الوفد في كتاباتهم؛ منهم أحمد شفيق باشا وإسماعيل باشا صدقي ومحمود سليمان غنام ومحمود أبو الفتح وعبد الرحمن الرافعي، وتناولها بالدراسة والتحليل المؤرخ الراحل الدكتور عبد العظيم رمضان في كتابه الرائد «تطور الحركة الوطنية في مصر»، وحاول أن يميز بين المطالبة باسترداد مصر لحقوقها وفكرة تأليف الوفد كأداة لاسترداد الحق، فقد كان السعي لنيل مصر لاستقلالها مطلبًا عاما لرجال السياسة في مصر، بل حلما لمجمل المصريين، وكان التفكير في وسيلة لتحقيق هذا الهدف شغلًا شاغلا لكثير من الساسة المصريين. ويلح السؤال: هل كان صاحب فكرة تشكيل الوفد هو سعد باشا الذي تزعم الوفد يوم تأسيسه، أم أن الوفد كان فكرة شخص آخر؟ سؤال يُطرح بإلحاح بين المؤرخين

والساسة منذ مائة سنة، والخلاف يدور حول ثلاثة أسماء؛ أولهم سعد زغلول مؤسس الوفد وزعيمه ورئيسه الأول الذي كان وكيلا منتخبًا للجمعية التشريعية، وثانيهم الأمير عمر طوسون سليل أسرة محمد علي، المعروف بمواقفه الوطنية المشوبة بميول عثمانية وبعدائه للاحتلال البريطاني وكذلك بميوله الإصلاحية، وكان الأمير يعد من المناصرين للحركة الوطنية داخل الأسرة العلوية، واستمرت مواقفه في الدفاع عن الاستقلال والدستور مع مجموعة من أمراء أسرة محمد علي في مرحلة ما بعد ثورة،١٩١٩، أما ثالث الثلاثة فهو حسين رشدي طبوزاده باشا رئيس الوزراء، ولكل واحد من الثلاثة قصة مع تشكيل الوفد المصري.

إنها ثلاث قصص متقاطعة تنتهي كلها إلى ما حدث يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وما تلاه من،أيام لكن الأمر المؤكد أن النخبة السياسية المصرية كانت تنتظر انتهاء الحرب العظمى كى تحصل مصر على استقلالها التام، فالعلاقة بالدولة العثمانية قد انتهت رسميًا وفعليًا، بل إن الدولة العثمانية نفسها كانت توشك على أن تلقى حتفها، ومبرر إعلان الحماية البريطانية على مصر ينتهي بانتهاء الحرب؛ وبالتالي فالمنطق الطبيعي لا بد أن يقود إلى إعلان استقلال البلاد بإعلان الهدنة، كذلك أحيا إعلان الرئيس الأمريكي ويلسون لمبادئه الأربعة عشر الشهيرة، ثم لما ردده في خطبه السياسية في العام الأخير للحرب حول حق تقرير المصير الشعوب الأرض الآمال في النفوس.

لكن هل يحصل المصريون على استقلالهم دون مطالبة؟ بالطبع لا، لا بد من هيئة أو وفد مصري يفاوض من أجل هذا الاستقلال ويطالب به.

لا شك إذا فى أن فكرة المطالبة بالاستقلال بعد الحرب كانت تشغل الساسة المصريين، لكن ممن جاءت البداية؟

يكاد الجميع يتفقون على أن الأمير عمر طوسون كان أول طوسون كان أول من طرح الفكرة بشكل واضح ومستقيم، ويقول الأمير عن ذلك بعد سنوات من الأحداث: «**إن فكرة إرسال وفد رسمي للمطالبة بحقوق مصر في مؤتمر الصلح، الذي أزمع عقده في نهاية الحرب العالمية الأولى قد خطرت ببالنا بعدما صرح الدكتور ويلسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة بمبادئه الأربعة عشر المشهورة في ٨ يناير سنة،١٩١٨، تلك النقاط التي تمنح الحق لكل أمة صغرت أو كبرت في تقرير مصيرها، ولما كانت مسألة مصر، بناء على هذا الاعتبار، مسألة دولية وليس لدولة دون سواها أن تنفرد بالنظر فيها، وأن مثل هذه المسألة الهامة تحتاج إلى درس وتمحيص قبل اجتماع المؤتمر؛ حتى لا يأتي يوم انعقاده إلا ونحن جميعًا مستعدون للمطالبة بحقوق بلادنا كاملة، ولا يضيع علينا الوقت سدى، فقد دفعنا ذلك إلى التكلم مع المرحوم محمد سعيد باشا في شأنها كان محمد سعيد ناظرًا للنظار قبل حسين رشدي باشا كما عاد إليها مرة أخرى بعد استقالة رشدي سنة ١٩١٩، فاقترح علينا أن نتكلم فيها مع المرحوم سعد زغلول باشا لشخصيته البارزة في الهيئة الاجتماعية وفي الجمعية التشريعية، فاستصوبنا هذا الرأي وصممنا عليه، ولم تمكنا المقادير من مقابلة سعد باشا إلا في الحفلة التي أقامها المرحوم رشدي باشا في ليلة ٩ أكتوبر سنة ١٩١٨ بكازينو سان استفانو احتفالا بعيد جلوس المغفور له الملك أحمد فؤاد الأول، وذلك قبل الهدنة والصلح؛ لأن نهاية الحرب كانت قد بدأت في هذا التاريخ، وفي تلك الليلة ذكرنا لسعد باشا قرب انتهاء الحرب وانعقاد مؤتمر الصلح، وأنه يحسن بمصر أن تفكر في إرسال وفد للمطالبة بحقوقها أمام هذا المؤتمر، فاستحسن الفكرة ووعد بالتكلم مع أصدقائه فيها عند عودته إلى القاهرة وأن يخبرنا بالنتيجة**».

هذه رواية الأمير للموضوع، فماذا كانت رواية سعد زغلول؟

تتفق رواية سعد زغلول في مذكراته مع رواية الأمير عمر طوسون، حول طرح الأمير للفكرة في حفل ٩ أكتوبر سنة ١٩١٨ بسان استفانو بالإسكندرية في حوار جانبي بينهما، ويزيد سعد على ذلك أن الأمير عاد مرة أخرى للنقاش معه في الموضوع بعدها بأيام قليلة، في حفل آخر أقامه السير ونجت المعتمد البريطاني في مصر تكريمًا للسلطان فؤاد بالإسكندرية يوم ٢٣ أكتوبر، والتقيا في اليوم التالي في القطار في طريق عودتهما للقاهرة وتحادثا في الموضوع مرة ثالثة، وحسب رواية لسعد زغلول فإنه رحب بالفكرة عندما عرضها عليه الأمير ولكنه قال له: إن الفكرة قامت في بعض الرءوس من قبل وقد آن الآن أوانها»؛ الأمر الذي أكد عمر طوسون أنه لا يتذكر أن سعد زغلول قاله له.

وفي يوم ١١ نوفمبر أبلغ سعد زغلول الأمير عمر طوسون بموعده مع المندوب السامي البريطاني يوم ١٣ نوفمبر بمجرد تحديد الموعد، فقرر الأمير عقد اجتماع بقصره بشبرا يوم ١٩ نوفمبر ١٩١٨ لمناقشة أمر تشكيل الوفد ووجه الدعوات، إلا أن الحكومة قررت منع الاجتماع، وتم إبلاغ الأمير فأرسل للمدعوين خطابات بتأجيل عقد الاجتماع، ويذكر عبد الرحمن الرافعي في كتابه عن ثورة ١٩١٩ أنه تردد أن الإلغاء كان باتفاق بين السلطان ورشدي باشا وسعد زغلول.

سعي الأمير عندما شعر باتجاه سعد زغلول وحسين رشدي إلى استبعاده لتكوين وفد مواز، وجمع بعض المقربين إليه وبعض رجال الحزب الوطني، وبدا أن الحركة الوطنية في طريقها للانقسام، لكن الأمير عمر طوسون تلقى رسالة من السلطان على لسان أمين يحيى باشا يدعوه فيها للكف عن التدخل في المسألة.

أم سعي يعني هذه ويرى الرافعي أن سعدا اعتبر دخول الأمير في الوفد رئاسته بالضرورة له؛ وبالتالي فقد لأن يشكل الوفد بعيدًا عنه، وسواء صحت تفسيرات الرافعي لا فإن شعبية الوفد وابتعاده عن أن يشكل تحت رئاسة أحد أمراء الأسرة العلوية الحاكمة حتى لو كان هذا الأم لو كان هذا الأمير من أصحاب المواقف الوطنية مثل الأمير عمر طوسون قد أعطياه قوة وتأثيرًا أكبر، وكما سجل الدكتور عبد العظيم رمضان في كتابه تطور الحركة الوطنية فى مصر» فإن سعدا وصحبه كانوا يريدونها حركة شعب لا إمارة وحركة استقلال لا خلافة».

ومع ذلك يؤكد سعد زغلول في مذكراته على فضل الأمير عمر طوسون فيقول بالحرف الواحد: «إن الأمير يستحق تمثالًا من الذهب لو نجحت المهمة».

في نفس الوقت كان حسين رشدي باشا يعمل على تشكيل وفد حكومي للتفاوض مع الإنجليز دون أن يعيق تشكيل الوفد الشعبي.

يبقى شخص رابع لم يفكر في إرسال وفد بل قام بنفسه بالفعل ومنذ سنوات ما قبل الحرب برئاسة عدة وفود في محافل دولية مختلفة للمطالبة باستقلال مصر؛ إنه محمد فريد بك الزعيم المنسي، خليفة مصطفى كامل في رئاسة الحزب الوطني، الرجل الذي اختار المنفى ليواجه من خلاله الاحتلال، فمنذ عام ١٩١٠ يشارك الزعيم محمد فريد في مؤتمرات السلام العالمية ويلقي فيها الخطب ويقدم المذكرات شارحًا القضية المصرية. كان أول مؤتمر للسلام يشارك فيه مؤتمر ستوكهولم في أغسطس سنة ١٩١٠، وشكل بعده جمعية السلام العام بوادي النيل ليشارك بعدها في مؤتمر جنيف في سبتمبر سنة ١٩١٢، ومؤتمر لاهاي في أغسطس سنة ١٩١٣ على رأس وفد مصري ضم محمد عبد الملك حمزة بك ومحمد علي بك المهندس والأستاذ محمد السادة والأستاذ السيد منصور، كما

شارك فى مؤتمرات الأجناس المضطهدة بلندن في فبراير ١٩١٤، ولوزان في يونية،١٩١٦ كما تقدم كذلك بمذكرة لمؤتمر الاشتراكية الدولية بستوكهولم سنة،١٩١٧، وفي أكتوبر من نفس العام وقبل طرح فكرة الوفد المصري بعام أرسل مذكرة للدول المتحاربة والمحايدة يطلب فيها الإقرار باستقلال مصر التام وحريتها عند انعقاد مؤتمر الصلح وتوالت مذكراته ورسائله من المنفى إلى كل محفل دولي يمكن أن يخاطبه، بما ذلك مؤتمر الصلح نفسه. لقد كانت هناك رؤيتان داخل الحركة الوطنية؛ رؤية الأمير عمر طوسون والحزب الوطني وترى تدويل القضية وعرضها على مؤتمر الصلح، ورؤية سعد زغلول ومجموعته وحسين رشدي وحكومته وترى الاتجاه إلى بريطانيا والحوار إلا أسابيع قليلة واتجه الوفد إلى تبني المطالبة بالمشاركة في في معها، وما هي مؤتمر الصلح، فتوحدت المواقف مرة أخرى.

لقد نجح سعد زغلول في الأيام الأولى للحركة في لم الشمل الوطني من خلال ضم أعضاء جدد للوفد يمثلون الاتجاهات المختلفة في الحركة الوطنية، وأعلن الوفد نظامه الأساسي يوم ٢٣ نوفمبر ١٩١٨.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣- نوفمبر وديسمبر مصر تتحرك

في نفس اليوم الذي بدأت فيه حملة جمع التوقيعات؛ يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٨، كتب أمين بك الرافعي العضو القيادي البارز في الحزب الوطني والشقيق الأكبر للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي مذكرة عن المسالة المصرية، عرض فيها قضية البلاد بشكل وافٍ من النواحي السياسية والقانونية، جمع فيها بين خبرة السياسي وحنكة المحامي وبلاغة الكاتب الصحفي، وقد ترجمها إلى الفرنسية وقدمها لمعتمدي الدول الأجنبية في مصر؛ لإبلاغها إلى الرئيس الأمريكي ويلسون وإلى بقية رؤساء الحكومات المشتركة في مؤتمر الصلح، وفي الوقت ذاته نشر أصلها بالعربية بين الساسة المصريين وفي صفوف الشباب المهتمين بالقضية الوطنية، وقد نشر عبد الرحمن الرافعي نصَ المذكرة في كتابه «ثورة ١٩١٩»، وشغلت المذكرة ٢٠ صفحة من صفحات الكتاب.

ومتعاطفون كان رجال الحزب الوطني في مصر يعملون من جانبهم على الدعاية بشكل مواز ومستقل للقضية المصرية. حقا لقد انضم منتمون للحزب الوطني خطه للوفد المصري بعد أن قام سعد بزيادة أعضاء الوفد، لكن مع هذا لم يثن رجال الحزب عن الحركة المستقلة في الدعاية للقضية المصرية بمنطقهم الجذري. ولم تكن مذكرة الرافعي هي الجهد الوحيد للحزب الوطني في الدعاية للقضية المصرية، كان محمد فريد يجوب المحافل الدولية ويسعى من خلالها لطرح القضية داعيًا إلى استقلال البلاد استقلالا تاما، ولما عقد مؤتمر الصلح في باريس أرسل محمد فريد وزملاؤه من أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطني الذين كانوا في سويسرا تقريرًا في ٥ ديسمبر ١٩١٨ إلى الرئيس ويلسون عقب وصوله إلى باريس وأعقبوه بتقريرين آخرين في أواخر ديسمبر ١٩١٨ وأوائل يناير ١٩١٩، طالب فيها باستقلال وادي النيل وقبول مصر في عصبة وقد الأمم وتمثيلها في مؤتمر الصلح وحماية حرية الملاحة في قناة السويس. رد سكرتير الرئيس ويلسون على فريد في ٢١ يناير بخطاب يؤكد فيه تسلم الرئيس للمذكرة الموقعة من فريد وأعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطني في سويسرا، ويعده بأن تلقى المسألة المصرية عناية الرئيس الخاصة، وكانت لتحركات فريد ورجال الحزب الوطني في الخارج أصداؤها في الداخل، مثلما كانت لكتابات رجاله ونشاطهم في الداخل أصداؤها أيضًا.

لقد كانت مصر كلها تتحرك، فماذا كان رد فعل سلطات الاحتلال؟ في يوم ٢٨ نوفمبر ١٩١٨ أرسل سعد إلى السلطات العسكرية البريطانية يستعجل التصريح له بالسفر، فجاءه الرد بعد يوم واحد بأنه «قد عرضت صعوبات تمنع من إجابته إلى طلبه في الوقت الحاضر، ومتى زالت تلك الصعوبات تبادر بإعطائه وصحبه الجوازات التي يطلبونها...». كشف الجواب نوايا السلطة العسكرية البريطانية تجاه قضية سفر الوفد المصري، ومدى استهانة سلطات الاحتلال بالشعب وبإرادته، فخاطب سعد المعتمد البريطاني في نفس اليوم مطالبًا إياه بتذليل الصعوبات أمام سفر الوفد المصري ليتمكن من الوصول إلى لندن قبل موسم الأعياد في الأسبوع الأخير من ديسمبر. عندئذ أسفرت دار الحماية عن موقفها وأبلغت سعدًا بخطاب رسمي في الأول من ديسمبر برفض سفره هو وزملائه، وأن عليهم أن يقدموا كتابة إلى المعتمد البريطاني بمصر، على ألا تخرج تلك المقترحات عن الخطة التي رسمتها الحكومة البريطانية لمستقبل مصر.

تصوراتهم كان الشعب المصري أسيرًا داخل حدوده». هكذا وصفت مجلة «أوروبا الجديدة» حال الشعب المصري عقب الحرب العالمية الأولى. لقد انتهت الحرب لكن الأحكام العرفية ظلت قائمة في البلاد، لم يكن أحد من المصريين يستطيع السفر إلى خارج البلاد إلا بتصريح من السلطة العسكرية البريطانية، حتى لو كان المسافر الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية سعد زغلول، بل إن رئيس الوزراء المصري حسين باشا رشدي كان هو الآخر يحتاج لمثل هذا التصريح، وعندما تقدم هو وعضو حكومته عدلي يكن باشا بطلب للسفر لإنجلترا للتفاوض ماطلتهما سلطات الاحتلال مثلما ماطلت سعدا وصحبه.

من السفر، عقب رفض الإنجليز التصريح بسفر الوفد المصري إلى الخارج لعرض القضية المصرية، والمماطلة الواضحة في سفر رئيس الوزراء بدعوى انشغال وزير الخارجية البريطاني بالاستعداد للسفر لمؤتمر الصلح؛ أخذت الأمور في مصر تسير في مسارات أخرى، وبدأ سعد زغلول حملة مضادة لمنعه فأرسل خطابًا إلى السير ونجت المعتمد البريطاني يوم ٣ ديسمبر ١٩١٨ يسجل فيه احتجاجه وأعضاء الوفد على منعهم من السفر، وأكد في رسالته بشكل واضح على أن الوفد يتحرَك في ضوء الوكالة التي منحتها له الأمة، مرسيًا مبدأ جديدا في السياسة المصرية يلتزم فيه المفاوض المصري برأي الشعب الذي أوكل إليه المفاوضة باسمه، فقال:

« ... ليس في وسعي، ولا في وسع أي عضو من أعضاء الوفد، الوفد، أن يعرض اقتراحات لا تكون مطابقة لإرادة الأمة المصرية المعبر عنها في التوكيلات التي أعطيت لنا».

ويرى الدكتور عبد العظيم رمضان في تحليله لخطاب سعد أن هذا الخطاب يؤكد على رفض الوفد المصري للتفاوض على أساس الحماية، ويعتبر الدكتور رمضان أن هذا الرفض دليل على فساد الرأي القائل بأن الاستقلال الذي كان يطالب به الوفد هو الاستقلال الذي لا يتعارض مع الحماية». ولما كانت خطوات الوفد تتم كلها بالتنسيق مع رئيس الوزراء، فقد أرسل سعد رسالة إلى حسين رشدي باشا في اليوم التالي يبلغه فيها بتطورات الأمور ويطلب منه الضغط من أجل سفر الوفد، لكن حسين رشدي نفسه كان ممنوعا من السفر.

ولم يكتف سعد بمخاطبة رئيس الوزراء المصري الذي لم يكن يملك من أمر نفسه شيئًا مثله مثل سعد، فأرسل في نفس اليوم برقية احتجاج إلى لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني، وقال في برقيته: «إن الأمة المصرية بأسرها، من أكبر وزير إلى أصغر فلاح محبوسون داخل حدود بلادهم، ولا يسمح لأحد منهم بالخروج من هذا الحصار الشديد».

ثم بدأ الوفد اتجاها جديدا بتدويل القضية وإخراجها من الجدل ثنائي الأطراف الجدل المصري البريطاني، فأرسل الوفد نداءً إلى معتمدي الدول الأجنبية لإعلانهم بتأليف الوفد وأهدافه، وبتعنت السلطات العسكرية البريطانية أنه تجاهه. ويختلف المؤرخون حول تاريخ هذا النداء فيذكر عبد الرحمن الرافعي كان في يوم ٦ ديسمبر ١٩١٨ بينما يشير أحمد شفيق إلى أن النداء صدر يوم ١٠ يناير ١٩١٩، وقد حدد النداء بوضوح مطالب الوفد المصري التي هي في الوقت ذاته مطالب الأمة التي وكلت الوفد في الحديث باسمها. وركز النداء على مطلبين رئيسين؛ أولهما الاستقلال التام الذي يعد حقا طبيعيًا للأمم، وأكد النداء أن مصر لم تهمل قط أمر المطالبة بهذا الاستقلال بل سفكت في سبيله أبنائها في ميادين القتال. وقد حاول النداء أن يربط هذا الاستقلال عن بريطانيا بسعي المصريين لتحقيق استقلالهم عن تركيا منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، مرسخًا بذلك للمنهج المصري في

الحركة الوطنية الذي يخالف منهج الحزب الوطني الذي قام في البداية على مماحكة قانونية تعتمد على السيادة الرسمية للدولة العثمانية على مصر، أما المطلب الثاني فكان الحكومة الدستورية.

دم وفي نفس الوقت أكد النداء على تعهد مصر المستقلة الدستورية باحترام امتيازات الاجانب، والتزامها بنظام للمراقبة المالية يتم الاتفاق عليه ويتولى الإشراف على تطبيقه صندوق الدين العام، كما أكد النداء على استعداد مصر لقبول الاحتياطات التي تراها الدول للحفاظ على حياد قناة السويس. وانتهى النداء إلى أن مصر تعتبر نفسها حائزة لأكبر شرف بوضع استقلالها تحت ضمانة جمعية الأمم، تشترك بهذه المثابة بقدر ما لديها من الوسائل في تحقيق مبادئ العدل والحق على النمط الحديث».

وفي نفس الوقت أرسل سعد زغلول برقية إلى الرئيس الأمريكي ويلسون يطلب إليه تحقيق مسعى الوفد في السفر لحضور مؤتمر الصلح في باريس؛ ليعلن بذلك عن توجه جديد للحركة الوطنية المصرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤- يوم١٣ يناير ١٩١٩خطاب سعد الأول ...

تطورت الأمور بسرعة خلال شهر يناير ١٩١٩ لتشق طريق الثورة، كان يوم ١٨ يناير الموعد المحدد لافتتاح مؤتمر الصلح في باريس يقترب، ولا توجد بشائر لحل أزمة سفر الوفد المصري إلى الخارج، سواء إلى لندن للتفاوض مع الحكومة البريطانية، أو إلى باريس لعرض القضية المصرية أمام المؤتمر الذي كان يفترض أن يرسم خريطة العالم ما بعد الحرب بات واضحًا أن رسائل الوفد لم تجدِ نفعًا، لا رسائله إلى المعتمد البريطاني في القاهرة، ولا تلك التي أرسلها سعد إلى لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني. كذلك لم يحرك سفراء الدول الأجنبية في القاهرة الذين خاطبهم الوفد ساكنًا، إذًا لا أمل في مساندة خارجية للقضية المصرية دون حركة الشعب هذا ما أدركه سعد ورجال الوفد.

الشعب

بدأ الوفد أسلوبًا جديدًا في التحرُك؛ الاتجاه إلى الداخل من أجل الضغط على الخارج. كان حشد الجماهير قد بدأ بالفعل منذ اليوم الأول لتشكيل الوفد من خلال حركة جمع التوكيلات التي مهدت الأرض أمام دعوة الوفد، لكن عدم الترخيص للوفد بالسفر كان يحتم على قادته التحرك بشكل أوسع بين ولما كانت الأحكام العرفية مطبقة، ويحول تطبيقها بين الوفد وتنظيم اجتماعات جماهيرية؛ فقد اتبع قادة الوفد خطة بديلة تقوم على تنظيم لقاءات واسعة فى منازلهم، وكانت البداية بدعوة من حمد باشا الباسل لاجتماع في منزله القريب من بيت الأمة يوم ١٣ يناير ١٩١٩، وحضر الاجتماع عدد كبير من الساسة والكتاب وأعضاء الهيئات النيابية والأعيان، وألقى سعد زغلول أول خطاب جماهيري له بعد تشكيل الوفد المصري، وقد صادف الاجتماع مرور شهرين على الزيارة التاريخية التي قام بها سعد ورفيقاه لدار المعتمد البريطاني يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨، والتي كانت نقطة البداية لأكبر ثورة شعبية في تاريخ مصر الحديث.

وأكد سعد في خطابه على أن المطالبة بالاستقلال ليست جديدة على المصريين، فقد بدأت عقب الاحتلال مباشرة، وروى قصة تشكيل الوفد ومنعه من السفر، وتحدث عن مؤتمر الصلح ومبادئ الرئيس الأمريكي ويلسون، ثم شرح مطالب الوفد في الاستقلال التام، وأكد أن هذا الاستقلال يشمل السودان كما يشمل مصر باعتبارهما من وجهة نظر الوفد كيانًا واحدًا، وتحدث بإسهاب الأجانب في مصر في مصر في محاولة جديدة لطمأنتهم، وأشار إلى حاجة مصر لوجود الأجانب وإلى أهمية استمرار الامتيازات كمرحلة انتقالية، وأكد أن الامتيازات لا تتنافى مع الاستقلال، وختم خطابه باقتراح إرسال برقية إلى الرئيس الأمريكي باسم المجتمعين يحيونه فيها ويعلنون تأييدهم لمبادئه، ولم يكتف سعد بإلقاء خطابه في حشد واسع بل قام الوفد بطبع الخطاب وتوزيعه على أوسع نطاق في القاهرة والأقاليم.

عن الطريف في الأمر أن الصحف الخاضعة للرقابة لم تشر إلى خطاب سعد، ويقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي في كتابه عن ثورة ١٩١٩ إن ما أوردته صحيفة الاهرام في عدد ١٤ يناير كان نبذة عابرة لا يفهم منها شيء». قالت الأهرام في خبرها الذي أنقله بنصه من كتاب الرافعي:

«دعا أمس حمد الباسل باشا العضو فى الجمعية التشريعية جماعة كبيرة من أعيان العاصمة والأقاليم إلى تناول الشاي في منزله بشارع الداخلية، فلبى دعوته نحو ١٥٩ ذاتًا ووجيهًا وأديبًا، وضرب في حديقة داره الواسعة سرادقا جميلًا نسقت فيه الكراسي والمقاعد والأخونة على أجمل طراز، ثم قدمت الحلوى وأطايب المآكل للحاضرين مع الشاي والقهوة، فقضوا جميعا من الساعة الرابعة إلى الساعة السادسة بأطيب الأحاديث، ثم انصرفوا رويدا رويدا وجماعات جماعات، وهم يتحدثون بفخامة هذا الاجتماع وبفضل الداعي وكرمه وكان سعادته وشقيقه وآله يقابلون المدعوين بما فطروا عليه من اللطف والكرم العربي، ويمتعون أسماعهم مع أصدقائهم وصحبهم بما يشنفها، وتمنى الكل لو كثر مثل هذا الاجتماع الكبير».

وقد ظل أعضاء الوفد يتعاملون مع هذا اليوم باعتباره مناسبة يحتفلون بها؛ فيذكر مصطفى النحاس في مذكراته أنه ورفاقه الأربعة المنفيين في سيشيل قد أرسلوا إلى سعد زغلول بعد نقله منفردًا إلى جبل طارق، تلغرافًا بإمضاءاتهم جميعًا؛ قالوا فيه: «هذا بمناسبة تصريحكم التاريخي في

١٣ يناير؛ نرسل لرئيسنا العظيم تمنياتنا القلبية بمستقبل سعيد. إجلال للحرم». ويقول: «أرسلنا هذا التلغراف بمناسبة الاجتماع العظيم الذي حصل بدار حمد باشا الباسل في ١٣ يناير سنة،١٩١٩، وفيه أعلن سعد أن مستقلة مصر قانونا، ولم يبق إلا السعي لدى الدول للاعتراف بهذا الاستقلال، وأن السودان جزء لا يتجزأ من مصر، كأنه إقليم من أقاليمها، وأن حقوق الأجانب مرعية محتفظ بها، وأننا بعيدون عن مناوأة عائلة محمد على كما أشاعه المرجفون، متمسكون بأن تكون مصر دولة مستقلة على رأسها عائلة محمد علي مصلح مصر العظيم». أما سعد زغلول فيقول في مذكراته: استلمت اليوم ١٣ تلغرافا من أصدقائنا في سيشيل بمناسبة ذكرى يوم ١٣ يناير ١٩١٩، مهتمين فيه ومذكرين بما حصل فيه، ولم أذكره أول الأمر، وبعد ذلك تذكرت أنه يوم ما أعلنت بطلان الحماية في جمعية الاقتصاد».

ومن الطريف أن سعد زغلول لم يتذكر المناسبة الصحيحة، فكلمته في جمعية الاقتصاد كانت في فبراير ١٩١٩، أما ما حدث يوم ١٣ يناير فكما يذكر النحاس كان الخطاب الذي ألقاه في منزل حمد الباسل باشا، وهذا أول خطاب سياسي عام لسعد بعد تأسيس الوفد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥- يوم ٦ فبراير ١٩١٩... «ووقف أحد السامعين»

فكر سعد في تكرار تجربة اجتماع دار حمد الباسل باشا، فدعا إلى اجتماع الأمة في بيت ٣١ يناير ١٩١٩ لكن السلطات البريطانية قررت منع الاجتماع. وبالفعل أرسل الميجور جنرال واطسون قائد القوات البريطانية خطابًا إلى سعد باشا قبل الاجتماع بأربعة أيام يطلب منه الغاء الدعوة، وقد نشر الرافعي نص الخطاب الذي يقول فيه واطسون:

علمت أن سعادتكم تعدون اجتماعًا في منزلكم بمصر في ٣١ الجاري يحضره نحو ستمائة أو سبعمائة شخص، وإني أرى أن مثل هذا الاجتماع قد يحدث منه إقلاق للأمن، فبناء على هذا الإعلان الصادر تحت الأحكام العرفية المعلنة بتاريخ ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤، أرجو أن تتكرموا بالعدول عن إقامة هذا الاجتماع». وأرسل سعد اعتذارًا إلى المدعوين يبلغهم فيه أن الاجتماع ألغي بأمر السلطة العسكرية، وفي نفس الوقت أرسل الوفد برقيتي احتجاج إلى رئيس الوزراء البريطاني والرئيس الأمريكي، وأعقبهما ببرقية إلى جورج كليمنصو رئيس وزراء فرنسا الذي كان رئيسًا لمؤتمر الصلح للمطالبة بضرورة عرض القضية المصرية على المؤتمر.

وهكذا سدت السلطات العسكرية البريطانية منفذ الاجتماعات الحاشدة في المنازل، فماذا فعل الوفد؟

قرر الوفد وزعيمه سعد ألا يفوت فرصة لمهاجمة الاحتلال والدعاية لقضية الاستقلال إلا ويستغلها أفضل استغلال بعد أن صادرت السلطات العسكرية البريطانية حقَ الوفد ورجاله في الاجتماع بمنازلهم.

وجاءت الفرصة على طبق من ذهب بمناسبة مناقشة مشروع قانون العقوبات الجديد الذي كانت سلطات الحماية البريطانية في مصر تعد لإصداره ضمن التعديلات التشريعية التي ترسخ سلطة الاحتلال في مصر وتجعل سلسلة من من نظامها القانوني نظاما تابعًا، بما في ذلك إصدار قانون أساسي (دستور) جديد؛ وهي التعديلات المعروفة بقوانين برونيت نسبة إلى السير وليم برونيت مستشار دار الحماية البريطانية في مصر، وكان المستشارون الإنجليز يروجون لهذه التعديلات التشريعية ويقومون بالدعاية لها في الأوساط القانونية والتشريعية المصرية.

وفي هذا السياق دعت الجمعية السلطانية للاقتصاد السياسي والتشريع والإحصاء لاجتماع في مقرها لسماع محاضرة مستر بريسفال المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية يوم ٦ فبراير سنة ١٩١٩ وفقا لرواية مصطفى النحاس في مذكراته ويوم ٧ فبراير وفقًا لرواية عبد الرحمن الرافعي، وكان بريسفال قد ألقى محاضرة في نفس الموضوع يوم ١٧ يناير، وتلك كانت محاضرته الثانية.

ذهب سعد وعدد كبير من أعضاء الوفد المصري لحضور الاجتماع ضمن حشد ضخم من رجال السياسة والقانون من بينهم عبد الخالق باشا ثروت وزير الحقانية، وبعد أن انتهى بريسفال من محاضرته التي ألقاها بالفرنسية، اعتلى سعد في من سعد منصة الخطابة وأعلن أن لديه ملاحظات على المحاضرة وعلى مشروع القانون، وتحدث بالعربية موضحًا أن بريسفال يعرف العربية، لكن الحقيقة أن سعدًا لم يكن يقصد بريسفال بحديثه إنما كان هدفه جمهور الحضور وعبرهم كل أبناء الشعب المصري، كما أن نقد مشروع القانون الجديد لم يكن هدف الأساسي من الحضور والتعليق بل طرح قضية الاستقلال من خلال مناقشة هذا القانون، إنه أسلوب في النضال السياسي يتبعه

المناضلون عندما تضيق عليهم السلطات سبل التعبير عن آرائهم واستهل سعد كلمته قائلا: «أيها السادة، إني أشكر المحاضر على ما قاله أنه يريد أن يكون لمصر المستقبل شرع خاص، ولكني أقول لحضرته إن هذا الشرع موجود فعلا منذ أمد بعيد إن أمتنا المصرية ليست من قبيل الأقوام الهمج الذين ليست لهم شرائع مقررة، إنما بلد كبلدنا تكون له حياة عريقة فى القوانين والشرائع فإن من الخطر أن يعمد إلى تغيير كلي في شرعه بدون أن تدعو الضرورة لذلك أو تهدي إليه التجربة والاختبار إن قانون العقوبات المصري المأخوذ عن القانون الفرنسي جرى عليه العمل منذ زمن طويل، فهو جزء من محصولنا القانوني تشربته قضاتنا ومحامينا، وسرى في أخلاق الأمة سير الدم في الجسد». وانطلق سعد بذكاء شديد من المناقشة القانونية إلى المناقشة السياسية، فانتقد استخدام الجمعية العلمية وسيلة لترويج قبول الامة بهذا التشريع وتمريره دون عرضه على الجمعية التشريعية، ثم انتقل إلى مهاجمة القانون لأنه يستند في مواده إلى حالة الحماية، وقال عن الحماية إنها: «حالة سياسية لا وجود لها الآن بمصر» ... واستطرد قائلًا: «إن بلادنا لها استقلال ذاتي ضمنته معاهدة ١٨٤٠، واعترفت به جميع المعاهدات الدولية الأخرى، وعبنا أثناء أفئدة يحاولون الاعتماد على ما حصل من تغيير هذا النظام السياسي في الحرب. إنكم أيها السادة تعلمون وكل علماء القانون الدولي يقررون أن الحماية لا تنتج إلا من عقد بين أمتين تطلب إحداهما أن تكون تحت رعاية الأخرى، وتقبل الأخرى تحمُل أعباء هذه الحماية؛ فهي نتيجة عقد ذي طرفين موجب وقابل ولم يحصل من مصر ولن يحصل منها أصلا».

وأكد على أن الحماية التي أعلنتها بريطانيا من جانب واحد سنة ١٩١٤ باطلة لا وجود لها قانونا، وأنها كانت ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها. وقد قضت كلمة سعد على مشروع برونيت تماما. واستقبلت الكلمة استقبالا حماسيًا من الحاضرين، وسرعان ما ذاع خبرها وانتشر نصها بين المصريين، وأصبحت حديث الأمة، على الرغم من تجاهل الصحف لها بسبب الرقابة والأحكام العرفية لدرجة أن جريدة وادي النيل التي كانت تصدر في الإسكندرية أشارت إلى الموضوع في خبر مقتضب بعنوان: في جمعية الاقتصاد والتشريع» جاء فيه:

ألقى المستر بريسفال المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية بعد ظهر الجمعة الماضية بقية محاضرته الخاصة بالتشريع المصري الجديد في جمعية الاقتصاد والتشريع، وبعد أن انتهى من إلقائه وقف أحد السامعين وبسط بعض ملاحظات ثم انفض الاجتماع».

وفي مذكرات النفي التي كتبها مصطفى النحاس ذكر في يوميات الاثنين ٥ فبراير ١٩٢٣ ما يلي:

«أرسلنا صباح اليوم التلغراف الآتي منا جميعًا لزغلول باشا بمناسبة خطابه في جمعية الاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع: «بمناسبة ٦ فبراير، الذي خلد ذكره خطابكم العظيم وموقفكم الوحيد في بابه المؤثر، نتمنى لكم صحة جيدة وأن تكلل بالنجاح أعمالكم الوطنية، التي هي على الدوام زاهرة ومستمرة، ونقدم للحرم الإجلال والإخلاص».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٩- يوم ٩مارس والأيام التالية

في عصر يوم ٨ مارس ١٩١٩ وصلت الأمور إلى منتهاها عندما ألقت السلطات البريطانية القبض على سعد زغلول وثلاثة من صحبه هم: محمد محمود باشا وإسماعيل صدقي باشا وحمد الباسل باشا ورحلتهم في اليوم التالي إلى بورسعيد ومن هناك أقلتهم إحدى السفن إلى المنفى في مالطة. ولم يكد خبر القبض على سعد وصحبه يشيع بين الناس حتى انفجر غضبهم لتبدأ بذلك الثورة؛ ثورة سنة ١٩١٩، التي بدأت صباح الأحد ٤ مارس سنة ١٩١٩، وكانت البداية من طلبة مدرسة الحقوق واشتعلت نار الثورة في مصر من أقصاها.

أقصاها إلى لقد بدأت الثورة ردًا على نفى سعد ورفاقه إلى مالطة فتحولت حركة الوفد من حركة سلمية هادئة إلى ثورة عارمة عنيفة، أنتجت أشكالا نضالية متنوعة ومتعددة ومتغيرة بتغير الظروف، ونجحت لجان الوفد في تفجير الثورة والاستمرار بها إلى أن أرغمت السلطات البريطانية على التراجع.

مع كان الإنجليز يتصورون أن نفي سعد سيمر مثلما مرت تدخلاتهم السابقة. لقد عزل إسماعيل ونفي، ونفي أحمد عرابي ورفاقه بعد محاكمة سياسية، واختار محمد فريد الابتعاد عن الوطن تحاشيًا للاعتقال والسجن، وعزل الخديو عباس حلمي الثاني ومنع من العودة إلى مصر، وفي كل هذه الحالات لم تشهد مصر احتجاجًا أو اعتراضًا له قيمة أو تأثير، لكن الحال هذه المرة كان مختلفا، فإسماعيل وعباس حاكمان لا يهتم الشعب كثيرًا بأمر عزلهما أو نفيهما، وعرابي نفي بعد معركة خرج منها الشعب المصري مهزومًا ومنكسرًا فاقدًا طاقة المقاومة لسنوات. أما محمد فريد فعلى الرغم من حركة البعث الوطني التي بدأت بدايات القرن العشرين بقيادة مصطفى كامل فإن تلك الحركة كانت محصورة إلى حد كبير في إطار النخبة السياسية وطلاب المدارس العليا. لكن الأمر كان مختلفا تلك المرة، ففضلا عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها مصر خلال سنوات الحرب العالمية الأولى، كان الوفد المصري قد نجح في حشد قطاعات واسعة من الشعب حول قضية الاستقلال من خلال حملة جمع التوقيعات على التوكيلات؛ لذلك عندما صحت مصر يوم ٩ مارس على خبر نفي سعد زغلول ورفاقه إلى مالطة هبت ثائرة، ويروي عبد الرحمن الرافعي الذي كان معاصرًا للأحداث القصة عن «ثورة ١٩١٩»، فيقول:

في كتابه «بدأت الثورة بمظاهرات سلمية ألفها الطلبة يوم الأحد ٩ مارس؛ إذ أضربوا عن تلقي الدروس وخرجوا من مدارسهم، وساروا بادئ الأمر نظام وسكينة تتقدمهم أعلامهم وهم يهتفون بحياة مصر والوفد المصري وسعد وسقوط الحماية الإنجليزية. كان طلبة مدرسة الحقوق أول المضربين، فقد امتنعوا عن تلقي الدروس منذ صبيحة هذا اليوم واجتمعوا في فناء المدرسة بالجيزة، يعلنون إضرابهم، فنصحهم المستر والتون ناظر المدرسة بالعدول عن الإضراب، وكان يخاطبهم بلطف فلم يستمعوا لنصيحته فاستدعى المستر موريس شلدون إيموس، نائب المستشار القضائي البريطاني لوزارة الحقانية، فجاء على عجل، وكرر عليهم النصح بالعودة إلى دروسهم، ودعاهم إلى ترك السياسة لآبائهم، فأجابوه إن آباءنا قد سجنوا، ولا ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون.» خرج طلاب مدرسة الحقوق إلى الشارع متظاهرين وانضم إليهم طلاب المهندسخانة والزراعة، ثم عبروا النيل وتوجهوا إلى مدرسة الطب بقصر العيني، فانضموا لهم، وذهب الجميع إلى مدرسة التجارة

العليا بالمبتديان (التي يشغل مكانها الآن معهد (التعاون واتجهت المظاهرة الضخمة إلى ميدان السيدة طلاب دار العلوم والتجارة المتوسطة ومدرسة المظاهرات بعض طلاب المدارس الثانوية.

زينب، فانضم إليها في أثناء سيرهم كما انخرط في القضاء الشرعي واشتبك المتظاهرون مع قوات البوليس التي كان يقودها الحكمدار الإنجليزي رسل، وانتهى اليوم بإلقاء القبض على ٣٠٠ متظاهر أودعوا في قسم السيدة زينب، ومنه تم ترحيلهم إلى باب الخلق، ثم إلى القلعة ليلا، ولم يسقط في هذا اليوم شهداء.

في اليوم التالي امتدت الإضرابات والمظاهرات إلى الأزهر وباقي المدارس العليا والثانوية وانضمت جموع الشعب إلى المظاهرات. وشهد اليوم الثاني للثورة إطلاق النار من جانب القوات البريطانية على المتظاهرين في منطقة الدواوين وقد اختلفت الروايات التاريخية حول اليوم الذي سقط فيه أول شهيد مصري، لكن المؤرخ المدقق عبد الرحمن الرافعي بحسه القانوني سعى إلى تحقيق الوقائع، فراجع دفتر الوفيات بقسم السيدة زينب، وتيقن من تسجيل استشهاد مصري مجهول يوم ١٠ مارس، كما راجع دفاتر مستشفى قصر العيني فوجد مسجلا بها وفاة (غلام مجهول في اليوم نفسه أيضًا، ومسجلا أمام كل منهما أنه أصيب في مظاهرة.

وقد شهد اليوم الثاني بعض أعمال تحطيم عربات الترام وواجهات بعض المحال التي يملكها الأجانب، فأصدر طلاب المدارس العليا نداء إلى الشعب المصري يناشدونه فيه التوقف عن تحطيم المرافق العامة وعدم الاعتداء على ممتلكات الأجانب.

كما أصدروا بيانًا موجهًا للأجانب المقيمين في مصر يعتذرون فيه عما حدث، جاء فيه:

إلى حضرات إخواننا ومواطنينا الأجانب، قد تأسفنا نحن معاشر الطلبة المصريين مما وقع من الغوغاء عند قيامنا بمظاهراتنا السلمية التي ما قصدنا بها، إلا إظهار عواطفنا وشعورنا مع محبتنا لمواطنينا الأجانب الأعزاء، وهكذا فلنكن أحباء كما عشنا مدى الأزمان.

في اليوم الثالث اتسعت الثورة، وأضرب سائقو الترام وسائقو الأجرة، فشلت حركة المواصلات في القاهرة، وأقفل معظم التجار محالهم، كذلك أغلقت البنوك والبيوت المالية أبوابها خوفا من تكرار حوادث التعدي على المحال الأجنبية واتساعها.

أما القيادة البريطانية فبادرت إلى إصدار إنذار شديد اللهجة للمواطنين تذكرهم فيه بأن الأحكام العرفية مازالت مفروضة في البلاد، وأن المحاكمات العاجلة تنتظر المتظاهرين والمتجمهرين. لكن الثورة كانت قد بدأت تتحرك، وكانت ككرة الثلج التي تكبر كلما تحركت؛ فمنذ اليوم الثالث للثورة وعلى مدار شهر كامل أخذت الثورة تتسع، والشهداء يتساقطون. وفي اليوم الثاني للثورة سقط شهيدان مجهولان، وفي اليوم الثالث سقط أول الشهداء الذين عرفت أسماؤهم الطالب محمد عزت البيومي الذي استشهد برصاص الإنجليز عند كوبري شبرا من ناحية باب الحديد، وقد حقق وفاته المؤرخ عبد الرحمن الرافعي في كتابه عن ثورة ١٩١٩.

وإذا كان طلاب المدارس العليا والمدارس الثانوية هم الذين فجروا الثورة، إلا أن الثورة امتدت بسرعة إلى مختلف فئات الأمة، فانضم إليها طلاب الأزهر وسائقو الترام والأتوبيس والأجرة، كما انضمت جموع المواطنين في الشوارع إلى المظاهرات فزادتها قوة.

السلطات وانضم المحامون إلى الثورة، فأضربوا عن العمل ابتداء من يوم ١١ مارس سنة ١٩١٩، وأصدروا بيانًا يعلنون فيه إضرابهم جمعوا عليه التوقيعات فيما بينهم، وقد اتخذ مجلس نقابتهم قرارًا بتأييد الإضراب وأبلغ المجلس القرار لرئاسة محكمة الاستئناف، وعلى الرغم من

محاولة وزارة الحقانية بتعليمات البريطانية إحباط الإضراب فإن معظم القضاة تعاطفوا مع موقف المحامين، وكان إضراب المحامين قد اتخذ طابعًا قانونيًا؛ حيث تقدم المحامون أفرادا ومجموعات بطلبات إلى رئاسة محكمة الاستئناف لنقلهم إلى جداول غير المشتغلين.

من وفي القاهرة شهد يوم الجمعة ١٤ مارس مظاهرات عنيفة بشارع عباس رمسيس (حاليا والسيدة زينب سقط فيهما ثلاثة عشر شهيدًا وسبعة وعشرين جريحا برصاص الإنجليز، كما سقط اثنا عشر مصليًا قتلى برصاص الإنجليز بعد أدائهم صلاة الجمعة بمسجد الحسين؛ حيث تصور الجنود البريطانيون أن المصلين المغادرين للمسجد عقب الصلاة متظاهرون ففتحوا عليهم النيران بشكل عشوائي. وفي اليوم التالي، يوم السبت ١٥ بدأ إضراب عمال عنابر السكك الحديد، وامتد إغلاق التجار للمحال التجارية إلى المناطق الشعبية بعد أن كان مقصورًا على منطقة وسط المدينة. وفي يوم ١٦ مارس انضمت النساء إلى الثورة في أول مظاهرة نسائية في الثورة شاركت فيها قرابة ٣٠٠ امرأة تتقدمهن السيدة هدى شعراوي، وتلتها مظاهرة نسائية أخرى يوم ٢٠ مارس. أما أكبر مظاهرات الثورة في القاهرة وأكثرها تنظيمًا فكانت مظاهرة ١٧ مارس التي شارك فيها أكثر من ٥٠ ألف متظاهر واستمرت لثماني ساعات منطلقة الأزهر مرورًا بالحلمية الجديدة وعابدين ووسط المدينة منتهية قرب ميدان باب الحديد دون أن يحدث فيها حادث عنف واحد وكان الثوار قد شكلوا فرقًا للشرطة الوطنية تضع شرائط حمراء على أذرعها لحماية المظاهرات وتنظيمها وضمان عدم وقوع حوادث اعتداء على الممتلكات الخاصة، وكانت تلك المظاهرة من المظاهرات القليلة التي لم تشهد اعتداءات من القوات العسكرية البريطانية على المتظاهرين، وكان هذا استثناء. في كل الأحوال لم تكتف السلطات البريطانية بإطلاق النار على المتظاهرين، بل بدأت تشدد من إجراءاتها فشكلت محاكم عسكرية في الشوارع لمحاكمة المتظاهرين، وأصدرت أحكامًا بالحبس والجلد والغرامة عليهم.

من لم تكن المظاهرات النشاط الوحيد للثوار، فإلى جانب مظاهرات الشوارع بيت الأمة أصبحت هناك منتديات للثورة يتجمع فيها الناس للاستماع إلى الخطباء ومناقشة أوضاع البلاد، وفي مقدمة هذه المنتديات كان الجامع الأزهر الذي تحول إلى معقل للثوار ومركز للخطابة وإلى جانبه كان هناك وجروبي شارع عبد الخالق ثروت ومحل صولت بشارع فؤاد ومقهى ريش بشارع طلعت حرب الآن، وقهوة الجندي وقهوة السلام بميدان الأوبرا، هذا إلى جانب منازل عدد من الساسة والكتاب من أمثال عبد الرحمن فهمي وأمين الرافعي ومحمود باشا سليمان وإبراهيم باشا سعيد والشيخ مصطفى القاياتي. وإذا كانت الثورة قد بدأت في القاهرة فلم تمض على بدايتها أربعة أيام إلا وكانت قد انتقلت إلى معظم مدن مصر وقراها، فمنذ يوم ١٢ مارس انتقلت الثورة إلى محافظات مصر المختلفة، مع وصول نبا نفي سعد وزملائه، وانتقال أخبار المظاهرات في القاهرة مع الطلاب الذين عادوا إلى بلادهم بعد توقف الدراسة في المدارس العليا والثانوية.

فخرجت المظاهرات في الإسكندرية وطنطا والمحلة الكبرى والمنصورة ودسوق وقلين وكفر الشيخ ودمياط وسمنود وميت غمر ودمنهور ورشيد وبورسعيد وشبين الكوم وبركة السبع والزقازيق والفيوم والواسطى وبني سويف والمنيا وأسيوط وجرجا. أما زفتى فقد أعلنت الجمهورية أنها شكلت لجنة شعبية منتخبة لحكم المدينة قادها يوسف الجندي المحامي وتعاون مأمور زفتى إسماعيل بك حمد الذي كان رجلا وطنيًا مع اللجنة الشعبية، وقد شهدت بعض المدن الصغيرة في مصر تجارب مشابهة مصغرة، ولم تقتصر الثورة على عواصم المحافظات والمدن الكبرى بل امتدت إلى المدن

الصغيرة والقرى، وأخذت الثورة طابعًا قويًا في الريف والصعيد فقام الفلاحون بقطع قضبان السكك الحديد وخطوط التلغراف والتلفون، ونجحوا في شل حركة الاتصالات في مصر، وحتى المناطق التي لم تشهد مظاهرات كبيرة مثل محافظتي قنا وأسوان، شهدت عمليات واسعة لقطع السكك الحديد وطرق المواصلات، فعمت الثورة مصر كلها خلال أيام قليلة، وكان سقوط الشهداء في المذابح التي نفذها الإنجليز يزيد الثوار إصرارًا على الثورة، وكانت جنازات الشهداء تتحول إلى مظاهرات جديدة. استمرت المرحلة الأولى من الثورة قرابة شهر؛ حتى رضخت سلطات الاحتلال وأفرجت عن الزعماء وسمحت لهم بالسفر إلى باريس، وألغت القيود على سفر المصريين إلى خارج البلاد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧- ٧ ابريل... انتصار الإرادة

لم يكد يمضي شهر واحد حتى أدركت بريطانيا أن عليها أن تقدم تنازلات للمصريين.

في صباح السابع من إبريل سنة ١٩١٩ صحت مصر على خبر الإفراج عن سعد ورفاقه وإلغاء القيود على سفر المصريين فبعد أقل من شهر على نفي سعد يوم ٨ مارس واشتعال الثورة يوم ٩ مارس رضخت سلطات الاحتلال لمطالب المصريين؛ تلك المطالب التي انفجرت ثورة مارس من أجلها؛ الإفراج عن الزعماء المنفيين والسماح لهم بالسفر إلى مؤتمر الصلح في باريس. لقد أدركت بريطانيا العظمى بعد شهر من القمع الوحشي للثورة أنها عاجزة عن إخمادها، وفي نفس الوقت كانت بريطانيا قد ضمنت أن مؤتمر الصلح لن يأخذ قرارًا باستقلال مصر، فقررت أن تهادن المصريين وتتراجع خطوتين إلى الوراء؛ عل الملاينة تنجح فيما فشلت فيه سياسة البطش والقوة.

مساء ٦ إبريل أصدر السلطان فؤاد منشورًا إلى الأمة يدعوها فيه للراحة والسكون وإلى انصراف كل إلى عمله، لكن المنشور حمل في طياته لهجة جديدة على فؤاد السلطان الذي نصبه الإنجليز على العرش، فقد تحدث لأول مرة عن تضامنه مع الشعور الوطني للشعب، وعن حبه للوطن واهتمامه بتحقيق سعادة البلاد وخيرها.

٦ كان منشور فؤاد تمهيدًا لما أعلنه الجنرال اللنبي! البريطاني الجديد صبيحة اليوم التالي يوم ٧ إبريل سنة ١٩١٩، ففي ذلك اليوم أصدر النائب الخاص لجلالة ملك بريطانيا في مصر، الجنرال أللنبي منشورًا جاء فيه: «الآن وقد عاد النظام بنجاح عظيم فبالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان أعلن أنه لم يبقَ حجر على السفر وأن جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد تكون لهم هذه الحرية، وقد قررت علاوة على ذلك أن كلا من: سعد زغلول باشا وإسماعيل صدقي باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا يطلقون من الاعتقال ويكون لهم حق السفر».

مثلما سرى خبر القبض على سعد وزملائه بسرعة بين الناس فقامت الثورة قبل أن تنقضي وعشرون ساعة على نفيهم إلى مالطة شاعت فحوى منشور أللنبي في صفوف الشعب، وأدرك المصريون أن تضحياتهم لم تذهب هباء، وأن دماء الشهداء لم تضع هدرًا، وأن صمودهم ورفضهم كل محاولات إثنائهم عن مواصلة الثورة جاءت بنتيجة.

لكن هل كان هذا يعني توقف المظاهرات وأعمال الثورة؟

الإجابة جاءت بالنفي.

لقد استمرت المظاهرات وزاد عدد المشاركين فيها، لكنها تحولت من مظاهرات للغضب والاحتجاج والمطالبة بالإفراج عن الزعماء المنفيين وإنهاء الحماية البريطانية، إلى مظاهرات للفرح والابتهاج بتحقيق أول خطوة على طريق النصر، ولإعلان مواصلة الكفاح حتى تحقيق الاستقلال التام.

تحولت المظاهرات الغاضبة يوم ٧ إبريل إلى مواكب شعبية ترفع الأعلام والزهور وأغصان الأشجار، وامتلأت شوارع القاهرة بالمتظاهرين. وفي الأيام التالية امتدت المظاهرات إلى عواصم المحافظات والمدن الكبرى في الدلتا والصعيد. وعلى الرغم من أن مظاهرات ٧ إبريل كانت سلمية وكانت احتفالية فقد سقط فيها شهيدان برصاص قوات الاحتلال البريطاني.

قرر القاهريون تنظيم مسيرة ضخمة يوم ٨ إبريل شارك فيها مئات الآلاف طبقا لتقديرات عبد الرحمن الرافعي، وربما كان هذا أكبر عدد من المتظاهرين في مسيرة واحدة منذ بدء الثورة وقد انطلقت المسيرة في الثالثة عصرًا من ميدان باب الحديد في اتجاه ميدان عابدين واستقبلهم عند السراي سعيد باشا ذو الفقار كبير الأمناء بالقصر وأبلغهم تحية السلطان فؤاد لهم، ثم اتجهت المسيرة إلى بيت الأمة، وخرج إلى الشوارع آلاف آخرون لمشاهدة موكب مسيرة الابتهاج، وقد تقدَم المسيرة المشايخ والقسوس والقضاة والمحامون، وسار فيها ممثلون للمهنيين والموظفين والطلبة والعمال وطوائف الحرفيين، وكانت كل مجموعة تحمل رايات وأعلامًا خاصة بهم، وسارت خلف المسيرة عربات تحمل مجموعة من السيدات والبنات، وتعرضت المسيرة لإطلاق النار من جانب الجنود البريطانيين عند منطقة الأزبكية فسقط عدد من الشهداء بينهم فتى عمره ١٢ سنة من باب الشعرية، ولم يرد المصريون في هذا اليوم على اعتداءات القوات البريطانية. وفي يوم ٩ إبريل استمرت المظاهرات وتكرر إطلاق النار من جانب القوات البريطانية، لكن المصريين ردوا الاعتداء في هذه المرة وسقط قتلى من الجانبين، وفي نفس اليوم أعاد السلطان فؤاد تكليف رشدي باشا بتشكيل الحكومة مرة أخرى بعد أن ظلت البلاد بلا حكومة منذ استقالة حسين رشدي في أول مارس.

ولتهدئة الخواطر فقد أصدرت القيادة البريطانية بيانين يومي ٨ و٩ إبريل تأسف فيهما لحادث إطلاق النار وسقوط الضحايا، وتبرره بأنه سوء فهم، وتعد بالتحقيق ومعاقبة المخطئين، الأمر الذي لم يحدث بالطبع.

استمرت الثورة بعد ذلك خاصة بعد أن تبيَن للمصريين أن مؤتمر الصلح كان قد أنهى أعماله، وأقر سيطرة بريطانيا على مصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨- إبريل ١٩٢١ موجة جديدة من الثورة ...

عاد سعد إلى مصر في إبريل،١٩٢١ بعد أن أمضى أكثر من عامين خارج البلاد بعد الإفراج عنه من مالطة، وقد توجه سعد منفاه إلى باريس للحاق بمؤتمر الصلح، ومنها إلى لندن في يونية ١٩٢٠ بدعوة من اللورد ملنر وزير المستعمرات البريطاني بعد فشل مهمته في مصر، وبعد أن أيقن الأخير أنه لن يصل إلى نتيجة لحل المسألة المصرية دون مشاركة من الوفد، وكان سعد في الوقت ذاته قد تأكد من فشل مساعي الوفد المصري في الوصول إلى نتيجة باستمرار وجوده في باريس فاتجه إلى لندن وخاض مفاوضات طويلة لم تسفر عن نتيجة هي الأخرى.

وقد عاد سعد إلى مصر بناءً على طلب من عدلي يكن رئيس الوزراء حينذاك من أجل التنسيق للمشاركة في المفاوضات مع بريطانيا، واستقبله الشعب استقبالا حافلا.

باعتبار لكن سرعان ما وقع الصدام بين سعد وعدلي وكان سبب الصدام بينهما الخلاف حول شروط مشاركة الوفد المصري مع وفد الحكومة في المفاوضات مع إنجلترا؛ فقد وضع سعد شروطًا تتضمن أن المفاوضة تكون على حصول مصر على استقلالها الكامل، وإنهاء الأحكام العرفية وإلغاء الرقابة على الصحف قبل بدء المفاوضات، ثم أن تكون الأغلبية العددية للوفد في فريق التفاوض، وأن تكون الرئاسة كذلك للوفد أي لسعد، وقد رفض عدلي هذا الشرط الأخير؛ أنه لا يمكن أن تكون رئاسة وفد المفاوضات لغير رئيس الحكومة. وأدى تمسك سعد بموقفه إلى انقسام كبير في صفوف الوفد فقد كان أغلب أعضاء هيئة الوفد مؤيدين لرأي عدلي يكن، بينما اعتمد سعد على تأييد الشعب له وعلى الأقلية التي أيدت موقفه من أعضاء هيئة الوفد، وأعلن سعد موقفه في مؤتمر جماهيري حاشد في شبرا في ٢٥ إبريل ١٩٢١ ضاربًا عرض الحائط برأي الأغلبية فى هيئة الوفد المصري، وأكد رفضه المشاركة في وفد برئاسة عدلى يكن مطلقًا مقولته الشهيرة: جورج الخامس يفاوض جورج الخامس»، مؤكدًا أنه موكل من الأمة بينما عدلي معين ليس رئيس حكومة برلمانية منتخبة، وأنه فوق ذلك معين من سلطان عينه الإنجليز. وأعلن الأعضاء الرافضون لسياسة سعد موقفهم المعارض له واستقالوا من الوفد، فاعتبرهم سعد منشقين عن الوفد، وأعاد تشكيل هيئة الوفد ممن بقي معه من الأعضاء معتمدًا على الدعم الشعبي لموقفه؛ ومن هذا الانشقاق في الوفد الذي التف حول عدلي يكن تشكل فيما بعد حزب الأحرار الدستوريين في أكتوبر سنة ١٩٢٢.

أصر كل من سعد وعدلي على موقفه وفي يوم ١٩ مايو ١٩٢١ أصدر السلطان أحمد فؤاد مرسومًا بتشكيل الوفد الرسمي للمفاوضات برئاسة عدلي يكن رئيس الوزراء ضاربًا عرض الحائط برأي سعد الممثل لرأي الأمة، وسافر الوفد الرسمي برئاسة عدلي إلى لندن في أول يوليه واستمرت المفاوضات بين عدلي وكرزون وزير خارجية بريطانيا شهورًا طرح خلالها الجانب البريطاني مشروعًا متراجعا عما طرحته لجنة ملنر، فقد كان مشروع كرزون احتلالا صريحًا ٦ خاصة فيما يتعلق بالوجود العسكري وبالتمثيل الخارجي والعلاقات الدولية، وقد استمرت المفاوضات حتى الخريف دون تحقيق تقدم.

واستمر سعد في تحريض الرأي العام ضد الحكومة وضد سلطات الاحتلال وضد الوزارة البريطانية، وفي مواجهة المفاوضات دعا سعد بعثة سوان البرلمانية العمالية لزيارة مصر، كما أوفد مكرم عبيد إلى لندن للدعاية ضد إبرام اتفاق مع حكومة لا تمثل الأمة، ونجحت مساعي سعد وفشلت

المفاوضات، ورفض عدلي باشا ووفده بالإجماع المشروع الذي قدمه كرزون في ١٠ نوفمبر ١٩٢١. وفي مواجهة فشل المفاوضات اقترح لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني على عدلي إيقاف المفاوضات لحين القبض على سعد وإبعاده عن الساحة تماما بنفيه، وقد رفض عدلي الاقتراح وحذر لويد جورج من عواقبه؛ فما كان من الحكومة البريطانية إلا أن قامت بإرسال تبليغ رسمي للسلطان في ٣ ديسمبر ١٩٢١ قبل عودة عدلي بثلاثة أيام بخططها في مصر، وهي الخطط ذاتها التي رفضها عدلي يكن، ولم يراع هذا التبليغ رأي المستشارين الإنجليز في مصر والذي كان يؤيده إلى حد كبير اللورد اللنبي الذي كان يرى ضرورة تقديم تنازلات لمصر.

وهنا تقدم عدلي يكن باستقالة حكومته، لكن الاستقالة لم تعلن حتى يتم الاستقرار على حكومة جديدة تقبل تحمل المسئولية في هذه الظروف الدقيقة، وتأخر تشكيل الحكومة لأكثر من شهرين إلى أن تشكلت حكومة عبد الخالق ثروت على أساس وعد بإعلان بريطاني من جانب واحد باستقلال مصر. وفي هذه الأثناء طلب أللنبي الموافقة على نفي سعد في إحدى المستعمرات فيما وراء البحار، وكان اقتراحه النفي لسيلان لما لها من دلالة معنوية قاسية في الذاكرة الجمعية المصرية بسبب نفي أحمد عرابي ورفاقه إليها نفيًا استمر لما يقارب العشرين عاما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩- ٢٣ ديسمبر ١٩٢١... النفي الثاني

صباح يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ ألقت السلطات البريطانية القبض على سعد زغلول ورحلته إلى السويس تمهيدًا لنفيه إلى سيشيل؛ وبعدها بساعات ألقت السلطات القبض على خمسة من قادة الوفد هم مصطفى النحاس وفتح الله بركات وعاطف بركات وسينوت حنا ومكرم عبيد ونقلتهم إلى السويس في اليوم التالي لتبدأ رحلة النفي التي استمرت قرابة عام ونصف العام.

وفي يوم ٢٩ ديسمبر تحركت بهم سفينة حربية إلى عدن فوصلوها يوم ٤ يناير ١٩٢٢؛ وفي يوم ٢ مارس غادر سعد زغلول ومكرم عبيد عدن في طريقهما إلى سيشيل ووصلا إليها يوم ٩ مارس وبعد وصولهما إلى سيشيل تم ترحيل باقي المجموعة من عدن ليلحقوا بهما هناك بعد عشرة أيام، وقد أقاموا جميعا في ماهي بسيشيل، ونتيجة للضغوط المتواصلة في مصر وبريطانيا تم نقل سعد زغلول إلى جبل طارق؛ فغادر سيشيل يوم ١٧ أغسطس ١٩٢٢ ليصل إلى جبل سبتمبر؛ ويستمر هناك يوم طارق حتى استمروا في سيشيل عشرة أشهر أخرى.

مارس ١٩٢٣، أما باقي المنفيين فقد وإذا كان السبب في نعي. ورفاقه للمرة الثانية فشل مفاوضات عدلي - كرزون التي اعتبر الإنجليز أن نشاط الوفد سبب فشلها، فإن السبب المباشر للنفي كان الدعوة التي وجهها سعد لاجتماع عام يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٢١، ومنع اللنبي للاجتماع، وتوجيه الإنذار لسعد وبعض أعضاء الوفد باعتزال العمل السياسي والتوجه إلى قراهم للعيش فيها تحت المراقبة، وقد رفض معظمهم هذا الأمر، فكان رد سلطات الاحتلال نفي الرافضين منهم بعيدا عن الوطن.

كان خبر القبض على سعد ورفاقه ونفيهم مفجرًا لموجة جديدة من موجات الثورة المصرية، كما دفع القرار عددًا من المنشقين إلى العودة لصفوف الوفد لكن عودة أغلبهم كانت مؤقتة ولم تستمر سوى أسابيع قليلة، وعلى الرغم من نجاح قوات الاحتلال في قمع المظاهرات وعمليات قطع السكك الحديد التي اجتاحت البلاد، فإن المقاومة استمرت، واتخذت أسلوبين؛ الأول: أشكال الاحتجاج السلمي الأخرى التي تواصلت مثل إصدار البيانات السياسية وبرقيات الاحتجاج، كما بدأت دعوات عدم التعاون والمقاطعة لكل ما هو بريطاني تتسع، وكان الأسلوب الثاني موجة من عمليات العنف وتفجير القنابل والاغتيالات شهدتها البلاد، طالت إلى جانب أماكن تواجد جنود عددًا من المدنيين الإنجليز وبعض الساسة المصريين الذين كان يُنظر إليهم باعتبارهم متعاونين مع قوات الاحتلال، وفي المقابل توالت عملية اعتقال أعضاء هيئة الوفد وإحالة بعضهم إلى المحاكم العسكرية، وكلما اعتقلت السلطات البريطانية في مصر مجموعة من الوفديين كان يتم تشكيل هيئة جديدة للوفد على الفور تواصل العمل في توجيه الحركة الجماهيرية.

الاحتلال وخلال فترة النفي وقعت تطورات مهمة على صعيد ما كان يعرف بالمسألة المصرية من ناحية وعلى صعيد التطورات في السياسة المصرية الداخلية من ناحية أخرى؛ فقد صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذي اعترفت فيه بريطانيا باستقلال مصر من جانب واحد مع التحفظات الأربعة التي ظلت بها بعض الأمور الجوهرية معلقة لحين إجراء مفاوضات جديدة وتوقيع معاهدة بين البلدين، فكان الاستقلال بذلك استقلالا منقوصا وتشكلت حكومة عبد الخالق باشا ثروت على أساس هذا الإعلان فقد قبل ثروت العمل في ظله، بل كان هذا التصريح المخرج الذي اقترحه هو وعدلي

يكن بعد أن فشلت جهود الأخير على مدى أكثر من ستة أشهر من المفاوضات في الحصول على معاهدة يمكن أن تقبلها الأمة، وتحول أحمد فؤاد من سلطان إلى ملك في ١٥ مارس ١٩٢٢، وبدأت الخطوات لاستكمال أركان المملكة الجديدة؛ فتشكلت لجنة الثلاثين لصياغة الدستور، وهي اللجنة التي أطلق عليها الوفد اسم «لجنة الأشقياء»، فقد كان الوفد يرى أن الدستور ينبغي أن تضعه جمعية تأسيسية منتخبة، ووافقه في ذلك الحزب الوطني. وفي شهر أكتوبر من عام ١٩٢٢ كان الإعلان عن تأسيس حزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلي يكن، وقد انضم إليه معظم المنشقين عن الوفد المصري إلى جانب مجموعة من مؤسسي الحزب الديمقراطي المصري الذي ظهر في خريف عام ١٩١٨، وربما يكون في هذا التفسير لبدء التقارب بين الوفد المصري والفريق الذي أطلق عليه الدكتور عبد العظيم رمضان اسم «المدرسة التركية» القريبة من الملك؛ الأمر الذي مهد الطريق للتقارب بين الوفد والملك نفسه، لكنه تقارب لم يدم طويلا.

بعض وفي الوقت ذاته بدأت الجفوة بين الملك ورئيس الوزراء عبد الخالق باشا ثروت؛ بسبب الخلاف على صياغة مواد الدستور؛ وكان واضحا أن الملك فؤاد قد قرر التخلص من رئيس وزرائه القريب من الإنجليز والمدعوم بقوة منهم؛ فدبر الملك ورجاله مؤامرة للتعدي على ثروت في أثناء أداء الملك لصلاة الجمعة في الأزهر، وعندما علم ثروت بالمؤامرة قطع الطريق عليها بأن قدم استقالة حكومته. وكلف الملك محمد توفيق نسيم باشا بتشكيل الوزارة؛ لتبدأ عملية التلاعب في نصوص الدستور. وعلى الرغم من أن نسيم كان قريبا من الوفد، وعلى الرغم مما بدا من تقارب بين الوفد والملك، فإن أعمال العنف استمرت؛ مما أدى إلى استقالة الحكومة بعد أزمة الإنذار البريطاني في فبراير ١٩٢٣ بخصوص صياغة مواد الدستور المتعلقة بالسودان.

وفشلت محاولة تشكيل حكومة برئاسة عدلي يكن بسبب عدم دعم الوفد له فتشكلت حكومة يحيى باشا إبراهيم وتحت ضغط الحركة الشعبية واستمرار أعمال العنف الموجهة ضد الاحتلال أصدرت الحكومة البريطانية قرارها بالإفراج عن سعد زغلول في ٢٧ مارس ١٩٢٣ وتمَ تنفيذه في ٣٠ مارس؛ وقد توجه سعد إلى فرنسا للاستشفاء، ولم يعد إلى مصر إلا في ١٧ سبتمبر ١٩٢٣. وفي ١٩ إبريل ١٩٢٣ صدر مرسوم الملك بإعلان الدستور مشوها، ثم قانون الانتخابات في ٣٠ إبريل، وصدرت قرارات الإفراج عن المعتقلين خلال شهر إبريل وعن المحكوم عليهم من القضاء العسكري البريطاني من قادة الوفد في ١٤ مايو ١٩٢٣، وقرار بعودة المنفيين في سيشيل يوم ٣١ مايو ١٩٢٣، وقد عادوا إلى أرض الوطن في ٢٦ يونية ١٩٢٣ واستقبلتهم الجماهير استقبالا حافلا. وبصدور قانون الاجتماعات العامة والمظاهرات وقانون الأحكام العرفية ثم قانون التضمينات في مايو ويونية ويوليه ١٩٢٣ على التوالي؛ أصدر اللورد اللنبي أمرًا بإلغاء الأحكام العرفية في ٥ يولية،١٩٢٣، وأجريت الانتخابات البرلمانية على مرحلتين؛ مرحلة انتخاب المندوبين في سبتمبر ١٩٢٣ ومرحلة انتخاب النواب في يناير ١٩٢٤، وفاز الوفد بتسعين في المائة من مقاعد مجلس النواب لتنتهي بذلك أيام الثورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني شعب وقائد

سعد والسياسة

يثار دوما في الأحداث الكبرى السؤال المشروع عن دور الفرد القائد ودور الجموع في صنع الحدث، وعند الحديث عن ثورة ١٩١٩، فإننا نقف أمام حراك شعبي واسع استمر على مدى أكثر من سنوات خمس، وأمام زعامة نجحت في أن تلتقط اللحظة التاريخية وتقود حركة الجماهير.

وإذا كانت زعامة سعد لم تبدأ إلا فى عام ١٩١٨ فإن دوره في العمل العام وأنشطته الاجتماعية والسياسية سابقة على ذلك التاريخ بسنوات عديدة، منذ التقى بالشيخ محمد عبده في أخذ أثناء دراسته، ثم يتردد على مجالس جمال الدين الأفغاني، وساهم الرجلان في تكوين ثقافة سعد وشخصيته في شبابه.

وقد لفت ذكاء سعد نظر أستاذه محمد عبده فاختاره للعمل معه محررًا بالقسم الأدبي بالوقائع المصرية» عندما تولى رئاسة تحريرها عام ١٨٨٠. وفي أعقاب هزيمة الثورة العرابية واحتلال الإنجليز لمصر، فصل سعد زغلول من وظيفته لاتهامه بمشايعة الثورة، ثم قامت السلطات باعتقاله مع آخرين بتهمة تشكيل جمعية سرية باسم جماعة الانتقام»، ولم يثبت الاتهام ضده فأفرج بعد عدة أشهر.

ثم اتجه سعد زغلول إلى العمل في المحاماة وبرع فيها، وأصبح من أشهر المحامين في مصر لما عرف عنه من قدرة على المرافعة وأمانة في العمل، ثم عين في سنة ١٨٩٢ قاضيًا بمحكمة الاستئناف، وكانت أعلى المحاكم المصرية درجة في ذلك الوقت؛ وخلال عمله في القضاء درس سعد القانون دراسة نظامية وحصل على إجازة الحقوق من جامعة باريس بدرجة متفوقة، فأضاف إلى خبرته العملية دراسة قانونية.

من خلال وفي سنة ١٩٠٦، وفي إحدى محاولات سلطات الاحتلال البريطاني للتخفيف من الآثار السلبية لحادث دنشواي تمَ تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف، وكانت المعارف من الوزارات الخاضعة لسلطة الاحتلال دنلوب المستشار البريطاني للتعليم؛ وقد لاقى هذا التعيين ارتياحا من جانب الحركة الوطنية المصرية عبر عنه مصطفى كامل في مقال له بجريدة اللواء في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦ تحت عنوان «سعد» بك زغلول وزير المعارف» جاء فيه: لما قابل جناب اللورد كرومر أول البارحة سمو الخديو المعظم في سراي رأس التين عرض عليه تعيين سعادة سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية وزيرًا للمعارف المصرية، فارتاح سمو الخديو لهذا الطلب لما يعهده في سعادة سعد بك من الفضل والعلم والأخلاق القويمة، وأن ما يعرفه أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو في المحاماة أولا، الناس في وفي ثانيًا، يحملهم جميعا على الارتياح لهذا التعيين الذي صادف مصريا مشهورًا بالكفاءة والدراية والعلم الغزير وحب الإنصاف والعدل. ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم منصبًا لا عمل فيه وكان المستشارون الإنجليز أصحاب السيطرة التامة في النظارات، حق للناس أن يتساءلوا عما يعمله سعد بك زغلول في وزارة المعارف، هل يكون كبقية الوزراء- أمره وأمر المعارف بيد C القضاء المستر دنلوب - أم يكون وزيرًا اسمًا وعملا ويحيى سلطة الوزراء المصريين؟ اللهم إننا عرفنا سعد بك زغلول في ماضيه وحاضره أشد

الناس تمسكا باستقلاله وحقوقه، وأكثرهم انتقادًا على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم... فإذا بقي سعد بك في وظيفته الجديدة كما هو وكما كان كما نعتقد وهو أملنا خيرًا كبيرًا للمعارف، ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة «الحياة المصرية» إلى الوزارة».

وطوال ست سنوات شغل فيه سعد المناصب الوزارية اختلف الناس حول كثير من مواقفه؛ فأيده البعض وانتقده آخرون، خاصة في صحافة الحزب الوطني. لكن الأمر الذي يتفق عليه الجميع أن سعد زغلول في أثناء توليه وزارتي المعارف ثم الحقانية حقق بعض الإنجازات المهمة مثل استئناف إرسال البعثات إلى معاهد العلم في أوروبا، وإنشاء مدرسة القضاء الشرعي ووضع مشروع قانون المحاماة الذي أنشئت بموجبه بعد إقراره نقابة المحامين، كذلك اصطدم سعد زغلول غير مرة بالمستشار البريطاني دنلوب الذي كان يسيطر على وزارة المعارف أما أهم المواقف التي تحسب لسعد زغلول خلال توليه الوزارة فاستقالته من وزارة محمد سعيد باشا؛ وقد كان السبب الرئيس لاستقالة سعد زغلول من الوزارة في مارس سنة ١٩١٢، قرار تحريك الدعوى العمومية ضد محمد فريد بتهمة التحريض على كراهية الحكومة دون مشاورته أو أخذ رأيه. وعندما أنشئت الجمعية التشريعية في سنة ١٩١٣ لتكون مجلسًا شبه نيابي، تقدم سعد زغلول للانتخابات في دائرتي الخليفة وبولاق بالقاهرة وفاز فيهما بتأييد ودعم من الحزب الوطني؛ وأصبح سعد الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية. وخلال الفصل التشريعي الأول والأخير للجمعية التشريعية برز صوت سعد خطيبًا مفوها يدافع عن حقوق الأمة، ونالت مواقفه تأييد ودعم كل القوى الوطنية في مصر.

وخلال سنوات الحرب العظمى اختار سعد الصمت ليعود صوته فور إعلان انتهائها مطالبًا بحقوق الأمة، وليصبح زعيمًا لمصر وقائدا لثورتها التي تفجرت يوم ٩ مارس ١٩١٩ احتجاجًا على نفي سعد ورفاقه إلى مالطة، ثم لنضالها الوطني وسعيها من أجل الاستقلال والدستور طوال تسع سنوات حتى وفاته في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧.

وعند موته رثاه أمير الشعراء أحمد شوقي بقصيدة طويلة عبر فيها عن مشاعر الحزن التي سادت الأمة، منها هذه الأبيات:

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها
جلَل الصبحَ سوادًا يومها فكأن الأرض لم تخلع دجاها
انظروا تلقوا عليها شفقا من جراحات الضحايا ودماها
وتروا بين يديها عبرة من شهيد يقطر الورد شذاها
كفَنوها حُرَة عُلوية كست الموت جلالا وكساها
مصر في أكفانها إلا الهدى لحمة الأكفان حق وسداها
خطر النعش على الأرض بها يحسر الأبصار في النعش سناها
جاءها الحق ومن ع ن عادتها تؤثر الحق سبيلا واتجاها
ما درت مصر بدفن صُبحت أم على البعث أفاقت من كراها؟
صرخت تحسبها بنت الثرى طلبت من مخلب الموت أباها
وكأن الناس لما نَسَلوا شُعَب السيل طغت في ملتقاها
وضعوا الراح على النعش كما يلمسون الركن فارتدت نزاها
خفضوا في يوم (سعد) هامهم و(بسعد) رفعوا أمس الجباها
تسكب الدمع على سعد دمــا أمة من صخرة الحق بناها

ولد الثورة سعد حرة بحياتي ماجد حُرِ نَماها
ما تمنى غيرها نسلًا، ومَنْ يَلِدِ الزهراءِ يزهد في سواها
أين مني قلم كنتُ إذا سمتُه أن يَرْتَيَ الشَمس رثاها؟
خانني في يوم سعد، وجرى في المراثي فكبا دون مداها
ولكن هل كانت قصيدة شوقي مجرد تعبير عن انفعال عاطفي في لحظة فراق الزعيم؟

في حياة الأمم شخصيات تلتقي بطموحات الشعب وأحلامه فتتصدى لقيادة البلاد في اللحظات العصيبة، وقد تنجح في تحقيق بعض ما تتطلع إليه الأمة، فتحفر لاسمها بذلك مكانة لا تهتز في الوجدان الشعبي؛ ومن هذه الشخصيات في تاريخنا المصري الحديث سعد زغلول الذي اعتلى مكانه زعيما للأمة بلا منازع عندما تصدى لمواجهة الاحتلال البريطاني عقب إعلان انتهاء الحرب العالمية الأولى؛ عندما أصبح قائدا للثورة المصرية ورمزا لها. لقد استحق سعد هذه المكانة في قلوب الأمة المصرية بسبب دوره في ثورة ١٩١٩؛ فسعد بحق هو زعيم أمة ومفجر ثورة.

وهذه ستة مواقف لسعد في سنوات الثورة تكشف عن جوانب من شخصيته القيادية والتزامه بالمبادئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١ - حكاية بيت الأمة

بدأت قيادة سعد للحراك السياسي فى مصر تتشكل يوما بعد يوم؛ كانت البداية في يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ عندما زار سعد ورفيقاه علي شعراوي وعبد العزيز فهمي دار المعتمد البريطاني مطالبين بإنهاء الأحكام العرفية والسماح لهم بالسفر لعرض القضية المصرية. وردا على الموقف السلبي الذي اتخذه السير ونجت المعتمد البريطاني، وتشكيكه في تمثيلهم للمصريين، انطلقت حملة جمع التوكيلات وعملية تشكيل الوفد المصري. وبين يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ يوم المقابلة التاريخية ويوم ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ يوم الإعلان عن تصديق أعضاء على قانونه ظهرت مواقف سعد الأولى في أيام التمهيد للثورة، تلك المواقف كشفت عن عقليته القيادية.

فعندما شعر سعد ببوادر الانقسام بين الوطنيين اتجه لضم عناصر جديدة للوفد المصري، من مجموعة الحزب الوطني ومن القريبين إلى الأمير عمر طوسون، فدخل في مفاوضات مع الحزب الوطني لكنها انتهت إلى الفشل بسبب الخلاف على الاسماء، فتصرف سعد طرف واحد وقام بضم كلٍ من مصطفى النحاس بك والدكتور حافظ عفيفي بك على اعتبار أنهما يمثلان الحزب الوطني فقد كانا من المعتنقين لمبادئه حسب تعبير عبد الرحمن الرافعي، وضم عناصر أخرى تمثل عناصر مختلفة من حمد الباسل باشا وإسماعيل صدقي باشا ومحمود بك أبو النصر وسينوت حنا بك وجورج خياط بك وواصف غالي بك وحسين واصف باشا وعبد الخالق مدكور باشا.

كانت الخطوة التالية التي ينبغي أن يتحرك الوفد في اتجاهها هي الشرعية لوجوده من خلال الحصول على توكيل من الأمة بتمثيلها، وكان من المفترض أن يوقع على التوكيل أعضاء الهيئات النيابية القائمة وقتها مثل: الجمعية التشريعية ومجالس المديريات والمجالس البلدية، وأكبر عدد ممكن من الساسة والكتاب والمفكرين، ثم أعيان البلاد ومن يتيسر من المواطنين من مختلف الطبقات.

من الأمة هم:

اكتساب وكانت صيغة التوكيل كما اقترحها أعضاء الوفد تقول: «نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد علي بك وعبد اللطيف المكباتي بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك، ولهم أن يضموا إليهم من يختارون في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة - حيثما وجدوا للسعي سبيلا - في استقلال مصر، تطبيقًا لمبادئ الحرية والعدل، التي تنشر رايتها دولة بريطانيا العظمى وحلفاؤها ويؤيدون بموجبها تحرير الشعوب».

الأصلية هي ومبادئ الحرية والعدل التي تذكرها وثيقة التوكيل في صيغتها المبادئ الأربعة عشر التي أعلنها الرئيس الأمريكي ويلسون في رسالته إلى مجلس الشيوخ الأمريكي بعد دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء، والتي أكد فيها على حق تقرير المصير لكل الشعوب.

وهذه الصيغة للتوكيل مختلفة عن الصيغة التي نعرفها، والتي تم جمع التوقيعات عليها بالفعل والتي كان نصها يقول: «نحن الموقعين على هذا أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد علي بك وعبد اللطيف المكباتي بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك، ولهم أن يضموا إليهم من يختارون، في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلا في استقلالًا تامًا». استقلال مصر فكيف تم تغيير صيغة الوثيقة؟

إنها حكاية من حكايات الثورة التي تكشف عن جانب من جوانب شخصية سعد وقدرته على احتواء المختلفين وهي قصة بها جانب من الطرافة أيضًا، يرويها عبد الرحمن الرافعي بالتفصيل.

لما نشرت الصيغة وتم تداولها لاقت اعتراض الجناح الراديكالي في الحركة الوطنية، والذي كان يمثله الحزب الوطني، وقد تركزت الاعتراضات على ثلاث نقاط: النقطة الأولى إغفال صيغة التوكيل للنص صراحة على الاستقلال التام هدفا لسعي حاملي التوكيل عن الأمة، وعدم الإشارة إلى السودان باعتباره من قريب أو من بعيد؛ حيث كان قطاع كبير من الحركة الوطنية يعتبر مصر والسودان بلدا واحدًا، أما الأمر الثالث الذي أثار الاعتراض فكان العبارة التي تذكر بريطانيا العظمى وتشير إليها باعتبارها تنشر راية الحرية والعدل في الوقت الذي كانت تحتل فيه مصر لاكثر من ست وثلاثين سنة منذ عام ١٨٨٢. وتحمس أربعة من أعضاء الحزب الوطني هم: عبد المقصود متولي ومصطفى الشوربجي ومحمد زكي علي ومحمد عبد المجيد العبد وذهبوا إلى بيت سعد لمناقشته فى صيغة التوكيل وإبداء اعتراضهم عليها. وقد استقبلهم سعد ودار بينهم حوار حول التوكيل وصيغته وسرعان ما احتدم النقاش بين سعد وضيوفه، فقد غلبتهم الحماسة الوطنية واحتدوا في لهجتهم على الشيخ في بيته، واعتبر سعد أنهم قد أهانوه فغضب وقال لهم: كيف تسمحون لأنفسكم بهذه الحدة؟ وكيف تهينوني في منزلي؟». فأجابه محمد زكي على الفور قائلا: «إننا أنفسنا نعتبر في بيت الأمة، لا في بيت سعد الخاص». فسر سعد من التسمية وراقت له الفكرة، وابتسم لمحدثيه وقال لهم: «لقد واجتمع تنازلت عن ملاحظاتي». أعضاء الوفد عقب انتهاء المقابلة وبحثوا تعديل صيغة التوكيل وانتهوا إلى الصيغة المعروفة التي تمَ جمع التوقيعات عليها، والتي تتوافق مع رأي رجال الحزب الوطني على الرغم من عدم ذكر السودان فيها، وقد فسر الوفد عدم ذكر السودان في الصيغة بأنه يعتبر أن مصر تعني مصر والسودان معا. وهكذا توحدت حول صيغة واحدة للتوكيل؛ بفضل سرعة بديهة محمد زكي ورحابة سعد زغلول؛ ومن يومها أطلق على بيت سعد اسم بيت الأمة»، وأضحى بيته بيتًا الأمة للأمة بحق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢- إثبات الموقف

كانت الخطوة الأساسية على طريق حشد الشعب المصري وتنظيمه في اتجاه الثورة، حركة جمع التوقيعات على توكيل الوفد المصري في السعي من أجل استقلال البلاد. لقد أتى رفض سلطات الاحتلال الاعتراف بسعد وزملائه وفدا يمثل الأمة بعواقب وخيمة على الاحتلال، فكانت الفكرة البسيطة والعبقرية في ذات الوقت هي أن يحصل الوفد على تفويض أو توكيل من الأمة بتمثيلها في التفاوض من أجل استعادة حرية البلاد، وكان جمع التوقيعات من المصريين فردا فردا سبيل الوفد إلى توحيد الشارع المصري خلف السعي نحو الاستقلال، وكان بداية الطريق إلى ترسيخ قيادة الوفد للأمة، وإبراز سعد زغلول زعيما للحركة الوطنية المصرية.

فبعد أن أقر الوفد صيغة التوكيل النهائي في أعقاب الحوار الذي دار بين سعد وأعضاء من الحزب الوطني في بيت سعد الذي أصبح بيتًا للأمة، انطلقت حركة جمع التوقيع على التوكيلات بطول البلاد وعرضها ومعها انطلقت روح جديدة الأمة، كانت البداية لحركة التوقيعات على التوكيلات بعد طبع الصيغة الأخيرة، ووزعت التوكيلات أولا على أعضاء الهيئات النيابية، ثم امتد توزيعها بين مختلف الجماعات والتجمعات، وسرعان ما انتشرت حركة جمع التوقيعات على التوكيل من القاهرة إلى المدن والقرى في شمال البلاد وجنوبها، وشاعت الحركة بين مختلف طبقات الأمة.

في وفي نفس الوقت الذي بدأت فيه حركة جمع التوقيعات في النصف الثاني من شهر نوفمبر سنة،١٩١٨، وفي ٢٠ نوفمبر ١٩١٨ على وجه التحديد، تقدم سعد زغلول بطلب لقيادة الجيش البريطاني في مصر بالتصريح له ولزملائه بالسفر إلى إنجلترا لعرض القضية المصرية، لقد كانت البلاد خاضعة للأحكام العرفية ولا يصرح المصري بالسفر للخارج إلا بإذن السلطة العسكرية.

الأمة على يبدو أن سلطات الاحتلال البريطاني لم تدرك للوهلة الأولى خطورة الحركة، ولم تكن تتصور الاستجابة الشعبية الهائلة لسعي الوفد المصري من أجل تحقيق استقلال البلاد، لكن التوكيلات وصلت إلى مليوني توكيل في شعب كان تعدده ١٤ مليونا وفقًا لما ذكره المؤرخ المصري المعاصر لأحداث الثورة محمد صبري، في الجزء الأول من كتابه الثورة المصرية»، لقد أثبت نجاح حركة التوكيلات إجماع الالتفاف حول الوفد المصري ومؤازرة مطالبه بالسفر إلى إنجلترا وفرنسا للدفاع عن القضية المصرية وعرض مطالب الأمة. كانت السلطات البريطانية في مصر تكتفي بالمماطلة في الرد على طلب وأعضاء الوفد المصري بالسفر، وتمنيهم بأن الأمر محل دراسة. نفس الشيء فعلته مع رشدي باشا وعدلي يكن،باشا، لكن اتساع حركة التوقيع على التوكيلات وانضمام ضباط الجيش والموظفين العموميين إليها، ومباركة الحكومة للحركة دفعت السلطات البريطانية لتغيير موقفها، فقد شعرت سلطات الاحتلال البريطاني بخطورة الحركة فقررت التصدي لها، فأصدر المستر هينز المستشار الإنجليزي لوزارة الداخلية أوامره إلى مديري المديريات باستخدام القوة لمنع حركة التوقيعات وبمصادرة التوكيلات كتابه عن وجاء رد سعد زغلول في رسالة وجهها إلى حسين رشدي باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٣ أوردها عبد الرحمن الرافعي في ثورة ١٩١٩، قال فيها:

عظيمًا مع حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء ووزير الداخلية أتشرف بأن أرفع لدولتكم ما يلي: لا يخفى على دولتكم أنه على أثر فوز مبادئ الحرية والعدل التي جاهدت بريطانيا العظمى

وشركاؤها لتحقيقها، ألفت مع جماعة من ثقات الأمة ونوابها وأصحاب الرأي فيها وفدًا لينوب عنها في التعبير عن رأيها في مستقبلها تطبيقا لتلك المبادئ السامية؛ لذلك شرعنا في جمع هذا الرأي بصيغة توكيل خاص، فوق ما لكثير منا من النيابة العامة، فأقبل الناس على إمضاء هذا التوكيل إقبالا السكينة والهدوء، هذا أقل مظهر نعرفه من مظاهر الإعراب رأي الأمة في مصيرها، لكنه قد اتصل بنا أن وزارة الداخلية قد أمرت بالكف عن إمضاء هذه التوكيلات. ونظرًا إلى أن هذا التصرف يمنع من ظهور الرأي العام في مصر على حقيقته؛ فيتعطل بذلك أجل مقصد من مقاصد بريطانيا العظمى وشركائها وتحرم الأمة المصرية من الانتفاع بهذا المقصد الجليل ألتمس من دولتكم باسم الحرية والعدل أن تأمروا بترك الناس وحريتهم يتمون عملهم المشروع. وإذا كانت هناك ضرورة قصوى ألجأت الحكومة إلى هذا المنع، فإني أكون سعيدا لو كتبتم لي بذلك حتي نكون على بصيرة من أمرنا، ونساعد الحكومة بما في وسعنا على الكف عن إمضاء تلك التوكيلات.

عن سلفا على تأييد وفي انتظار الرد تفضلوا يا دولة الرئيس بقبول شكري مبادئ الحرية الشخصية وعظيم احترامي لشخصكم العظيم. الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية ورئيس الوفد المصري سعد زغلول ومع استمرار السلطات في مصادرة التوكيلات الموقعة، أرسل سعد خطابًا ثانيًا إلى رشدي يوم ٢٤ نوفمبر ١٩١٨ يشكو فيه من «أن رجال الحكومة لم يقتصروا على منع التوقيع على التوكيلات بل تجاوزوه إلى مصادرة ما تم التوقيع عليه منها...».

وفي اليوم التالي؛ يوم ٢٥ نوفمبر ١٩١٨، ردَ حسين باشا رشدي على سعد زغلول مؤكدًا أن المصادرة جاءت بأوامر من المستشار البريطاني استنادًا إلى استمرار الأحكام العرفية.

ووفقًا لتفسير الدكتور عبد العظيم رمضان في كتابه «تطور الحركة الوطنية» فإن الهدف من الخطابين كان إثبات واقعة المصادرة أكثر مما كان الهدف منهما وقف إجراءات منع حركة التوكيلات، فسعد يعمل هنا بعقلية رجل القانون والمحامي، ومع ذلك فقد أثمرت الخطابات وردود رشدي باشا عليها. فقد استمرت حركة التوكيلات واتسعت؛ حيث شعر رجال الإدارة أن الحكومة توافق عليها وتساندها فتراخوا في التصدي لها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣- سعد في المنفى

في محنة النفي الأول إلى مالطة تبدت بوضوح شخصية سعد القيادية بين رفاقه، واهتمامه بتنظيم شئون حياتهم ووضع نظام لأنشطتهم ومعيشتهم في المعسكر الإنجليزي الذي أصبح مستقرا لهم في رحلة نفي لم يكونوا عالمين بمداها؛ فعندما نفى الإنجليز عرابي إلى سيلان ظل في منفاه قرابة عشرين عاما، كما أن محمد فريد الذي فضَل مغادرة الوطن على مواجهة عسف السلطة وكرس حياته للدعاية للقضية المصرية في الخارج لم يستطع العودة مرة أخرى إلى مصر. كانت هذه التجارب حاضرة في أذهانهم وعلى وجه الخصوص تجربة نفي العرابيين إلى سيلان؛ هذا البلد البعيد الذي أصبح يشكل هاجسًا في وجدان الوطنيين المصريين، مع ذلك تصرف سعد برباطة جأش وأخذ يخطط لنفسه ولرفاقه تفاصيل حياتهم في المنفى.

ونتعرف على هذه التفاصيل من حكايات رفاق سعد في منفاه، فبعد رحيل سعد زغلول في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ صدرت عدة كتب عنه؛ منها كتاب صغير للكاتب الصحفي كريم ثابت بعنوان «سعد» في حياته الخاصة» صدر في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٩، جمع فيه مؤلفه معلومات مختلفة عن حياة سعد الخاصة منذ طفولته إلى يوم وفاته، سمع بعضها من سعد نفسه وبعضها الآخر جمعه من المقربين منه في حياته أو بعد وفاته وكان كريم ثابت قد نشر بعضًا منها في مقالات بمجلات العالم وكل شيء،والمصور، ثم جمعها في هذا الكتاب الذي أهداه إلى أم المصريين شريكة سعد في جهاده.

من ضمن فصول هذا الكتاب فصل بعنوان «سعد ومعيشته في مالطة» يحكي فيه كريم ثابت تفاصيل عن حياة سعد في المنفى نقلا عن حمد الباسل باشا أحد قادة الوفد البارزين الذين تمَ نفيهم مع سعد في مارس ١٩١٩، والذي يروي تفاصيل قصة النفي منذ القبض عليهم، ويكشف عن مشاعرهم وأفكارهم في هذه الرحلة العصيبة.

يقول حمد باشا:

قبيل غروب شمس يوم من الأيام اعتقلت السلطة العسكرية سعد باشا وصحبه الثلاثة، ونقلنا جندها إلى ثكنات قصر النيل، وهناك أبلغونا أننا سنسافر في صباح الغد، وأنه يحسن بنا أن نأخذ معنا من الثياب والملابس ما يكفينا لشهر على الأقل، فسألنا: إلى أين سنسافر؟ فأجابونا بأننا سننقل إلى بقعة غير: معلومة، فالححنا في معرفة هل تقع هذه البقعة في الأراضي المصرية أو فيما يجاورها من الديار الفلسطينية، أم أننا سنجتاز البحار وننفى إلى غير بلاد الشرق من الأمصار. فكان الجواب أن الجهة التي سنرحل إليها يجب أن يبقى اسمها مجهولًا عنا، فأذعنا للقوة واستسلمنا لمشيئة خالقنا، ورضي رجال السلطة بأن منازلنا ما نحتاج إليه من الحاجيات في رحلتنا، كما أنهم سمحوا نجلب من لكل منا بأن يستصحب معه خادمه. وفي صباح اليوم التالي وضعت أمتعتنا في سيارة من سيارات الجيش الكبيرة، ودعينا نحن إلى ركوب سيارات صغيرة نقلتنا من ثكنات قصر النيل إلى محطة العاصمة، ووقفت بنا على رصيف القطار الذي أقلنا في الساعة الحادية عشرة إلى بورسعيد، وكان يحرسنا في ديواننا اثنان من الضباط وأربعة من الجنود الشاكي السلاح.

ولما دنا القطار من الإسماعيلية أخذنا نتساءل: هل سننزل فيها توطئة لنقلنا إلى السويس ومنها إلى سيلان أو إلى غيرها من بلاد الله الواسعة، أم سنستأنف سفرنا إلى ما بعدها من المحطات؟ فلما بلغنا الإسماعيلية ولم يبد حراسنا حركة أو إشارة أدركنا أننا قاصدون إما إلى القنطرة فنذهب منها إلى

فلسطين وإما إلى بورسعيد لنركب منها متن البحر الأبيض المتوسط. ولكننا لم ننزل في القنطرة فقلنا: إلى بورسعيد إذن ولما وصلنا إليها قادونا إلى باخرة كانت راسية في مينائها واسمها كالدونيا، ولم يكن فيها سوى جند وضباط من رجال الجيش البريطاني، وكانوا مسافرين إلى أوروبا.

وركبنا الباخرة ونحن نجهل الجهة التي نقصد،إليها ولكن لم تكد الباخرة تقلع بنا وتمر أمام تمثال ديلسبس حتى جاءنا الضابط المكلف بحراستنا وأخبرنا أننا ذاهبون إلى مالطة التي اختارها ولاة الأمور منفى لنا. اعترضنا عندئذ على استصحاب خدمنا معنا وقلنا إنه إذا كنا نحن قد أتينا عملا تظن السلطة العسكرية، أننا نستحق النفي عقابًا عليه، فما ذنب هؤلاء الخدم المظلومين الذين لم يكن لهم في الموضوع ضلع؟ فلما سمع خدمنا هذا الكلام احتجوا عليه، وأقسموا أن يرافقونا في جميع غدواتنا وروحاتنا، ويشاركونا في سرائنا وضرائنا.

بأنفسنا وفي اللحظة التي خرجت فيها الباخرة من المياه المصرية قيل لنا إن البحر لا يزال مملوءًا بالألغام التي بثها الألمان في كل مرحلة من مراحله لاقتناص بواخر الحلفاء، كما قيل لنا إنه يجب علينا أن نكون دائمًا على استعداد لكي ننجو في حالة حدوث انفجار. ولكي لا نؤخذ على غرة أخذوا يدربوننا مع الجنود الذين كانوا مسافرين معنا على سبل النجاة والخلاص؛ فكانوا يعطون كل واحد منا طوقًا من الفلين ويرشدونه إلى مكانه في قارب النجاة المعين لنزوله فيه في حالة حدوث انفجار في الباخرة ثم يمثلون رواية الغرق بجميع أدوارها أننا استوعبنا الدروس التي ألقوها علينا في هذا الشأن.

ليتأكدوا من ولما صرنا على مقربة من مالطة توقفت الباخرة عن السير، ثم لم نلبث أن أبصرنا زورقًا بخاريًا يدنو منها قادمًا من الجزيرة فأدركنا في الحال أنه الزورق المعد لنقلنا إلى البر. ولما صار محاذيًا للباخرة صعد منه إليها ضابط فظ الطباع شرس الاخلاق فحيانا بعجرفة وخاطبنا بغطرسة قائلا إنه لا يسمح لكل منا إلا بحمل حقيبة صغيرة، أما الحقائب الكبيرة فيجب أن نتركها وراءنا في الباخرة لأن لا محل لها في الزورق، واتفق أن ربان الباخرة كان واقفا بجانبنا سمع اللهجة التي يخاطبنا بها هذا الضابط دنا منه وقال له إنه يحمل توصية بوجوب معاملتنا باحترام، فلم يسعه عندئذ سوى الإذعان ورضي بأن نأخذ معنا ما نريده من حقائبنا وأمتعتنا.

ساعتئذ فلما ولما وطأت أقدامنا البر ألفينا مركبة صغيرة ذات عجلتين في انتظارنا فأركبنا فيها سعد باشا وأحد الأصحاب، وسرت أنا والصاحب الرابع بجانبها على الأقدام؛ وبعدما سرنا مسافة طويلة وصلنا إلى قشلاق فردالا الذي اختاره ولاة الأمور البريطانيون ليعتقلونا فيه فخصصوا لكل واحد منا غرفة للنوم وغرفة للجلوس وحماما، وكانت غرفنا كلها واقعة في صف واحد بعيدا الجنود، فاسترحنا واغتسلنا وأبدلنا ملابسنا، ثم سألنا عن عن أماكن التدابير التي اتخذت من مال يسير لإعداد طعامنا فأجابونا أنهم سيصرفون لنا كل يوم كذا دراهم من الخضار وكذا دراهم من الزبدة، فاعترضنا على هذه المعاملة. فقالوا إنهم سيختارون لنا طاهيًا ألمانيا بارعًا ليطبخ لنا ما نشاء من الأطعمة وأصناف المأكولات بما يصرفونه لنا كل يوم من المواد الغذائية، وزادوا على ذلك أنه إذا كنا نبغي أن نحصل على مأكولات أخرى ففي طاقتنا أن نحصل عليها من كانتين الضباط على أن ندفع نحن ثمنها من مالنا الخاص، فسررنا بذلك وجمعنا ما كان معنا وأخذنا ننفق منه على شراء ما كان يطيب لنا من المأكولات والأطعمة، وطلبنا من القائمين على حراستنا أن يسمحوا لنا بمكاتبة أهلنا ليبعثوا إلينا بما نفتقر مال، فقالوا لنا إنهم سيؤدون عنا هذه المهمة. وفعلا أخبرونا بعد يومين أن كلا منا تلقى خمس مئة جنيه من مصر، وأن هذا المبلغ أودع باسمه في صندوق مكتب القشلاق فكنا إذا اشترينا شيئًا من

الكانتين أمضينا على الفاتورة فيأخذها مديره ويقبض قيمتها من مكتب القشلاق الذي كان يخصم ما يدفعه إليه من عنا من المال المودع عنده باسمه.

وبعدما استقر بنا المقام في مالطة قال لنا سعد باشا في يوم من الأيام إنه فرغ من إعداد برنامج معيشتنا في منفانا فخصص بعض ساعات النهار للدرس؛ والمذاكرة، وخصص ساعات أخرى للمطالعة والمحادثة، وخصص ما بقي من الساعات للتريض والتفكه وإذ كان رجال القشلاق يطفئون أنواره الساعة التاسعة مساء طلبنا أن يدعوا أنوار غرفنا مضاءة حتى الساعة الحادية عشرة فأجابونا إلى طلبنا.

والتقيت في مالطة برجل ألماني من المعتقلين الألمان، عرفته في الفيوم وكان يعطيني دروسًا في اللغة الإنجليزية فسررت،بلقائه، ولما عرف سعد باشا تاريخ علاقتي به كلفني أن أطلب منه أن يعطيه دروسًا في اللغة الإنجليزية، فرضي الرجل عن طيب خاطر، وأخذ الرئيس يتلقن تلك اللغة على يده.

وكنا حتى ذلك الحين نجهل تمامًا ما حدث في مصر من الحوادث عقب إبعادنا عنها؛ إذ إن القائمين على حراستنا كانوا يحولون دون تسرب الجرائد إلينا، ولكن أحد الضباط المكلفين بمراقبتنا قال لنا مرة: إنكم غادرتم مصر بعدما صيرتموها شعلة من نار، فأدركنا أن في مصر حالة غير عادية، لكننا لم نشأ أن نكثر من السؤال والاستقصاء كي لا تحوم الظنون حولنا.

وبعد يومين دخل علينا طاهينا الألماني وأخرج من حذائه نسخة من جريدة التيمس، ودفع بها إلينا فقرأنا فيها أن الشعب المصري هاج وماج على أثر القبض علينا وإبعادنا، وأن مصادمات شتى وقعت بين الطلبة والجنود البريطانية، وأن الطيارات الإنجليزية ألقت قنابلها على عربان الفيوم وقتلت أربع مئة منهم، وأن الجماهير تبدي مقاومة في كل مكان وأن وأن وأن.... إلى غير ذلك من أخبار الحركة التي كنا نجهل أمرها كل الجهل فترحمنا عندئذ على الموتى، وأدركنا أن الشعب المصري جاد في نهضته ماض في نضاله، فأقسمنا ساعتئذ على أن نفنى في خدمته وفي سبيل الدفاع عن قضيته، وأن ننبذ الحياة المادية ولا نهتم إلا بالشئون المعنوية، وبتنا على أحر من جمر نرقب ما تخبئه لنا الأيام من مفاجآت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤- حوار مع سعد زغلول في لندن

في إبريل ١٩٢٧ قبل وفاة سعد زغلول بأربعة أشهر صدرت في القاهرة الترجمة العربية لكتاب الروسي تيودور روذستين خراب مصر»، وقد حملت الترجمة عنوانًا مختلفا يعبر عن محتوى الكتاب تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده»، وقد ترجمه إلى العربية علي شكري محمد أحد الشباب المرتبطين بالحزب الوطني، وقام بترجمة الكتاب وكذلك مذكرات بلنت، وكتابه «التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر»، وعندما حاول طبع ترجماته في مصر سنة ١٩١٧ منعت السلطات العسكرية البريطانية،نشرها وخلال المرحلة القلقة بين ثورة مارس ١٩١٩ وصدور دستور ١٩٢٣ وما تخللها من ملاحقات للوطنيين المصريين قام علي شكري بإحراق الكتب والترجمات، ثم عاد مرة أخرى بعد أن استقرت الأمور فترجم كتاب خراب مصر» ونشره سنة ١٩٢٧.

لقد قدم علي شكري للترجمة بمقدمة طويلة تحدث فيها عن تطور الحركة الوطنية بعد تأليف الكتاب وضمَن المقدمة حوارًا أجراه مع سعد زغلول في أواخر أكتوبر ١٩٢٠ في فندق سافوي بلندن، عندما ذهب سعد وأعضاء الوفد للتفاوض مع الحكومة البريطانية، وقد اعتمد علي شكري على صداقة والده لسعد في إجراء الحوار الذي تبدو فيه جرأته على سعد، ويكشف الحوار عن موقف سعد الجذري قياسًا إلى مواقف زملائه في الوفد في المفاوضات حول مشروع ملنر، الذي رفضته الأمة وانقسمت حوله القيادة السياسية، وكان مدخل الحديث تصريح سعد لبعض الطلبة المصريين في لندن بأن مشروع ملنر «حماية بالخط الثلث»، واستمر الحديث وفقًا لعلي شكري أربع ساعات، لكنه لم ينشر على ما يبدو بعد سبع سنوات من إجرائه سوى جزء صغير لكنه دال ومعبر. يقول علي شكري محمد: «لما كنا قد سمعنا بأن بعض الصحف المصرية كذبت رأي دولته في المشروع كان من الطبيعي أن نفتح الحديث باستجلاء رأي دولته، فصرح لنا أنه حقا بأن مشروع لورد ملنر هو حماية بالخط الثلث»، ولكنه إنما قال ذلك لهم في حديث خصوصي لا لينشروه وفي جريدة الأهالي بصفة خاصة. دولته يقص علينا من أنباء الوفد وكيفية تشكيله وما حدث بعد ذلك من الحوادث إلى حين سفره من مالطة إلى باريس. وقد تطرق الحديث إلى ذكر المفاوضات فدار بيننا حوار كالآتي:

أخبرهم ثم أخذ س: كيف وافقتم معاليكم على الحضور إلى لندن مع عدم علمكم بالأساس الذي تدور عليه المفاوضات؟

من ج:

لقد أكدوا لى أن أساسها الاستقلال التام لمصر والسودان.

س: من هم الذين أكدوا لك ذلك؟

ج: مندوبو الوفد الذين أرسلناهم إلى إنجلترا لجس النبض.

س: إذن لم يصل إلى معاليكم شيء رسمي لا من اللورد ملنر ولا من أعضاء لجنته؟

أحد ج: كلو من س: سبق أن شغلتم معاليكم منصب القضاء الأعلى في مصر فلم يكن يطاوعكم ضميركم على الحكم في أمر الأمور إلا بعد الاطلاع على المستندات والوثائق الخاصة به وأنتم قد عركتم الدهر وتعرفون من ماضي لورد ملنر ما قد لا نعرفه نحن معشر الشبان فكيف استجزتم لأنفسكم الإقدام على أمر خطير كنقل مركز القضية المصرية من باريس إلى لندن ولم يصلكم مستند

رسمي من لجنة اللورد ملنر عن الأساس الذي تدور عليه المفاوضات؟ ألا معاليكم أن حضوركم إلى لندن كان غلطة سياسية كبرى؟

ج:

ترون لا أكتمك الحقيقة يا ولدي؛ فلقد خدعني زملائي وغرروا بي. س: إن الأمة المصرية إنما وضعت ثقتها المصرية إنما وضعت ثقتها في معاليكم فهي لا تعرف شيئًا عن هؤلاء الزملاء، فلماذا لم تنبذوا استشارتهم وقد رأيتم خطأها؟

ج:

لقد خفت من تفرق الكلمة إن أغلبية أعضاء الوفد استحسنوا الذهاب إلى لندن؛ فرأيت أن أنزل على رأيهم تفاديًا من الظهور بمظهر المتعنت الخارج عن الأغلبية.

س: ولكن نسيتم معاليكم أن الأمة وكلتكم في السعي لاستقلال مصر والسودان، أفلم يكن يجدر بكم استشارة البلاد قبل الإقدام على أمر خطير كهذا وخاصة أنكم لم تكونوا من رأي أغلبية الوفد؟

ج هذا ما حدث على كل حال وقد رأوا أن لا بأس من استطلاع رأي القوم هنا، وقد حضرنا لهذه الغاية.

س: إذن فماذا كان رأيكم في مشروع اللورد ملنر من بدء الأمر؟ ج: كان رأيي أنه حماية بالخط الثلث، وإن كان يشتمل على بعض المزايا. الأمة بهذا حتى كانت تستنير تستنير برأيكم، وأنت زعيمها س: لماذا لم تصارحوا الذي تسترشد برأيه عند الخطوب؟

ج: إن المشروع كما أخبرتك يشتمل على بعض مزايا؛ فخوفا من أن يلومني الشعب المصري لأنني حرمته من هذه المزايا، استصوبت عرض الأمر عليه. س: هذا كان يكون حسنًا لو أن الذين انتدبتهم معاليكم لعرض المشروع على الشعب اكتفوا بعرضه دون أن يظهروا تحيزهم له، فما بالك وهم لم يتركوا وسيلة إلا التجئوا إليها لحمل الأمة على قبول المشروع كما هو؟ ج: لقد كلفتهم بالوقوف على الحياد التام عند عرض المشروع على الأمة. س: ألم يخبروك كيف استقبلته الأمة؟

ج لقد أفهموني أن الأمة راضية عنه كل الرضا. س: هذا غير الواقع يا معالي الباشا، ألم يبلغوك ما كتبه الأستاذ عبد الحميد بك أبو هيف في نقد المشروع؟ ج كلا، بل كل ما قالوه لي: إن الأمة أبدت بعض رغبات في صدد المشروع، وإنهم هم الذين أوعزوا إليها بتقديم تلك الرغبات! س ولكن يا باشا هذا أيضًا غير صحيح، فلقد طلب فريق من التحفظات وتشدد في قبولها ونادى الفريق الآخر بسقوط المشروع بتاتا، فهلا كان من المستحسن ومعاليكم مقتنعون بأن المشروع حماية بالخط الثلث أن ٦ الأمة تصارحوا الأمة بهذا الرأي، فإن أصغت لمشورتكم قطعتم المفاوضات وعدتم إلى حظيرة الوطن مرفوع الرأس، وإن أبت إلا التطوح وراء المشروع استقلتم من رئاسة الوفد وأشرتم على الأمة بانتخاب رئيس بدلكم يسعى للحصول لها على استقلال زائف؟ إذ ليس يخفى على معاليكم أن الأمة وكلتكم في السعي للحصول على الاستقلال فإن لم توفقوا في مهمتكم فردوا الأمر لها وليس في ذلك غضاضة عليكم؛ لأن الزعيم هو الذي يقود مواطنيه إلى طلب الكمال فإن ساروا خلفه طائعين فبها ونعمت وإن أصروا على الرضا بالقشور دون اللباب فليترك لهم زعامتهم وليعلم أنهم لم ينضجوا بعد النضوج الكافي.

ج: إنني معول على قطع المفاوضات إذا لم يصغ القوم إلى مطالبنا. وهنا تشعب الحديث فتناول عدة مسائل أخرى لا يتسع لها هذا المقام. ثم لم تمض على هذا الحديث بضعة أيام حتى ذهبنا مرة أخرى لزيارة سعد باشا، فأخبرنا أنه يعد معدات السفر بعد أن رأى من تعنت القوم وتصلبهم ما يذهب

بصبر الحليم.» وكانت عودة سعد بداية لحلقة جديدة من حلقات الثورة أدت به إلى النفي مرة أخرى مع خمسة من رفاقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥- سنوات الشدة والإرهاب

أقدم هنا هذا الجزء من مذكرات النفي التي كتبها مصطفى النحاس في المنفى الثاني لسعد إلى سيشيل والتي يروي فيها المقدمات التي أدت إلى نفي سعد وقادة الوفد المصري للمرة الثانية؛ يقول النحاس تحت عنوان سنوات الشدة والإرهاب:

«كانت النتيجة الحتمية لتأليف بعثة رسمية للمفاوضة ضد إرادة الأمة وسفرها إلى لندرا على الرغم من الأمة، واستعمال وسائل القهر والخداع ضد الأمة لاختلاس ثقتها بالبعثة الرسمية، كانت نتيجة كل ذلك أطماع الإنجليز في حكم مصر بالقوة؛ لذلك زادوا مطامعهم إلى أبعد من مدى ظاهر مشروع وأعلنوا بكل قوة بكل جرأة أن مصر لازمة لهم، وأنهم باقون فيها إلى الأبد وتهددوها بإخضاعها بالقوة إن لم ترضخ لهم بالسلام، ودفعوا مشروع كرزون إلى عدلي رئيس البعثة الرسمية، فلم يسعه الإجابة عليه إلا بأنه لا يمكن أن يؤدي إلى اتفاق تقبله الأمة، فتخطوا البعثة ورجعوا إلى السلطان، فرفعوا إليه بواسطة مندوبهم السامي مشروع كرزون ورد عدلي عليه ومذكرة من اللورد معلنة نية الإنجليز نحو مصر وما عولوا عليه في الحاضر والمستقبل، مهددين باستعمال الشدة لقمع ما أسموه بالتهييج المبني على التعصب.

عادت البعثة الرسمية إلى مصر وقوبلت أسوأ مقابلة، وقدمت تقريرا للسلطان لينا رخوا دلَ على أن البعثة لم تعمل شيئًا ولم تناضل عن حقوق مصر. وقدم عدلي استقالة الوزارة لأنه كما يقول: لم يوفق إلى تحقيق برنامجه الذي للأمة.

اللنبي أعلنه ودعا سعد باشا زغلول وكيل الأمة الأمين ورئيس الوفد المصري وجهاء القوم مختلف الطبقات لاجتماع عام يعقد في ليلة الجمعة ٢٣ ديسمبر في نادي «سيرو» بالقاهرة للنظر في الأحوال الحاضرة.

من فأصدر اللورد أللنبي في ١٩ ديسمبر أمرًا عسكريا بإلغاء هذا الاجتماع بحجة المحافظة على الامن العام، فاحتج سعد باشا على هذا المنع، وتوالت الاحتجاجات كذلك من جميع أنحاء القطر...

وفي ١٩ ديسمبر وصل الأستاذ مكرم إلى الإسكندرية قادما من لندرا بعد جهاده العظيم الذي أظهر به للرأي العام الإنجليزي حقيقة موقف البعثة الرسمية الأمة المصرية، وأدى ذلك إلى فشل البعثة الرسمية في مهمتها وعودتها من خائبة...

كان مكرم قد وعد في خطبه السابقة بإذاعة أخبار المفاوضات بعد تقديم تقريره بها إلى الرئيس. وما كان للإنجليز - وقد قرروا استعمال الشدة - أن يمكنوه ذلك. ففي نحو الساعة ١١ صباح يوم الخميس ٢٢ ديسمبر اتصل بعلم أنه سيبلغ إليه اليوم أمر موجود الآن في قلم المطبوعات بأن يبرح هو وأعضاء الوفد القاهرة إلى محال إقامتهم بالريف. فتذاكرنا في الخطة التي يجب من الرئيس علينا اتخاذها عند وصول هذا الأمر إلينا وهي عدم إجابة هذا الأمر طوعًا. وقرب الظهر حضر إلى بيت الأمة المستر «تيل» وكيل الحكمدار، ومعه خطابات لكل من الرئيس وسينوت ومكرم وأنا من أعضاء الوفد، ولكل من فتح الله باشا بركات وعاطف بك بركات وصادق بك حنين وأمين أفندي عز العرب وجعفر بك فخري من غير أعضاء الوفد؛ وهذه الخطابات جميعها صادرة من الجنرال كلايتون مستشار وزارة الداخلية.

وهذه ترجمة خطاب الرئيس:

صاحب المعالي أتشرف بأن أخبركم أنه بناءً على تعليمات المارشال القائد العام أبلغ معاليكم الأمر الآتي: سعد باشا زغلول ممنوع بهذا تحت الأحكام العرفية من إلقاء الخطب، ومن حضور اجتماعات عامة ومن استقبال وفود ومن الكتابة إلى الجرائد، ومن الاشتراك في الشئون السياسية، وعليه أن يغادر القاهرة بلا توان، وأن يقيم في مسكنه بالريف تحت مراقبة مدير المديرية.

الإمضاء

اللنبي

الوكالة البريطانية

القاهرة في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢١

ولي الشرف أن أكون لمعاليكم الخادم المطيع

الإمضاء

كلايتون بريجادر جنرال

مستشار وزارة الداخلية

وتذاكر الموجودون جميعًا في ماذا يكون رد الرئيس؛ وتقرر أن يكون الرد عدم الخضوع طوعًا للأمر؛ لأن الخضوع إليه معناه التخلي عن الواجب المقدس الذي عهدت به الأمة إلينا للمطالبة باستقلالها التام. وبعد الغداء حرر الرئيس الرد الآتي:

جناب الجنرال كلايتون مستشار وزارة الداخلية

أتشرف بإخباركم أني استلمت خطابكم بتاريخ اليوم الذي تبلغني فيه بأمر جناب الفيلد مارشال اللنبي بمنعي من الاشتغال بالسياسة، وإلزامي بالسفر إلى عزبتي بلا تأخير للإقامة بها تحت مراقبة المدير.

وهذا أمر ظالم أحتج عليه بكل قوتي. إذ ليس هناك ما يبرره. وبما أني موكل من قبل الأمة للسعي في استقلالها، فليس لغيرها سلطة تخليني من القيام بهذا الواجب المقدس.

لهذا سأبقى في مركزي مخلصًا لواجبي. وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفرادا وجماعات. فإنا جميعًا مستعدون للقاء ما تاتي به بجنان ثابت وضمير هادئ، علما أن كل عنف تستعمله ضد مساعينا المشروعة إنما يساعد البلاد على تحقيق أمانيها في الاستقلال التام.

وأرجو أن تقبلوا فائق احتراماتي.

الإمضاء سعد زغلول

القاهرة في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١»

كانت نتيجة صلابة موقف سعد ورفاقه ورفضهم اعتزال العمل السياسي، نفيهم من مصر إلى سيشيل، وبقاءهم في المنفى قرابة العام ونصف العام، لكن هذا الموقف في الوقت ذاته حافظ على استمرار الثورة حتى حققت انتصارات جزئية جديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٦- وزارة سعد الأولى والأخيرة

تولى سعد زغلول باشا رئاسة الوزارة مرة واحدة في الفترة من ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ إلى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤، كانت تلك الوزارة الأولى والأخيرة له، وجاء تولي سعد لرئاسة الوزارة بعد أول انتخابات برلمانية جرت على أساس دستور ١٩٢٣، وفاز فيها حزب الوفد بأغلبية كاسحة وربما كانت تلك الانتخابات من أنزه الانتخابات التي شهدتها مصر طوال تاريخها البرلماني. وقد أجرت تلك الانتخابات وزارة يحيى باشا إبراهيم. وعقب استقالة الحكومة أصدر الملك أحمد فؤاد الأول الأمر الملكي رقم ١٤ لسنة ١٩٢٤، بتكليف سعد زغلول رئيس حزب الأغلبية بتأليف الوزارة، وجاء في هذا الأمر:

«عزيزي سعد زغلول باشا لما كانت آمالنا ورغائبنا متجهة دائمًا نحو سعادة شعبنا العزيز ورفاهيته، وبما أن بلادنا تستقبل الآن عهدًا جديدًا من أسمى أمانينا أن تبلغ فيه ما نرجوه لها من رفعة الشأن وسمو المكانة، ولما أنتم عليه من الصدق والولاء، وما تحققناه فيكم من عظيم الخبرة والحكمة وسداد الرأي في تصريف الأمور، وبما لنا فيكم الثقة التامة قد اقتضت إرادتنا توجيه مسند رئاسة مجلس وزرائنا مع رتبة من الرئاسة الجليلة لعهدتكم.

تأليف هيئة الوزارة، وعرض مشروع هذا وأصدرنا أمرنا هذا لدولتكم للأخذ في التأليف علينا لصدور مرسومنا العالي به. ونسأل الله جلت قدرته أن يجعل التوفيق رائدنا فيما يعود على بلادنا بالخير والسعادة إنه سميع مجيب.» وجاء جواب سعد زغلول على التكليف قطعة من الأدب السياسي الرفيع أكد فيها على الولاء للشعب الذي اختاره واختار حزبه ويكرر فيها تمسكه بالمبادئ الوطنية والديمقراطية التي بلورتها ثورة،١٩١٩، ويطرح برنامج حكومته الذي يؤكد على استكمال أهداف الثورة؛ ويصر في تشكيل حكومته على أن تضم اثنين من الأفندية، وعلى أن يكون حصولهم على الرتب والألقاب من الملك بعد تشكيل الوزارة تأكيدًا على أن الوزارة ليست للباشوات والبكوات فقط؛ قال سعد في رده على الملك:

مولاي صاحب الجلالة إن الرعاية السامية التي قابلت بها جلالتكم ثقة الأمة ونوابها بشخصي الضعيف توجب على والبلاد داخلة في نظام نيابي يقضى باحترام إرادتها وارتكاز حكومتها على ثقة وكلائها ألا أتنحى عن مسئولية الحكم التي طالما تهيبتها في ظروف أخرى، وأن أشكل الوزارة التي شاءت جلالتكم بتشكيلها من غير أن يعتبر قبولي لتحمل أعبائها اعترافا بأي حالة أو حق استنكره الوفد المصري الذي لا أزال متشرفا برياسته.

إن الانتخابات لأعضاء مجلس النواب أظهرت بكل جلاء إجماع الأمة على تمسكها بمبادئ الوفد التي ترمي إلى ضرورة تمتع البلاد بحقها الطبيعي في الاستقلال الحقيقي لمصر والسودان مع احترام المصالح الأجنبية التي عليهم لا تتعارض مع هذا الاستقلال، كما أظهرت شدة ميلها للعفو عن المحكوم سياسيا، ونفورها من كثير من التعهدات والقوانين التي صدرت بعد إيقاف الجمعية التشريعية ونقصت من حقوق البلاد وحدت من حرية أفرادها، وشكواها من سوء التصرفات المالية والإدارية ومن عدم الاهتمام بتعميم التعليم وحفظ الأمن وتحسين الأحوال الصحية والاقتصادية وغير ذلك من وسائل التقدم والعمران، فكان حقًا على الوزارة التي هي وليدة تلك الانتخابات وعهدا مسئولًا منها أن توجه عنايتها إلى هذه المسائل الأهم فالمهم منها وتحصر أكبر همها في البحث عن أحكم

الطرق وأقربها إلى تحقيق رغبات الأمة فيها وإزالة أسباب الشكوى منها، وتلافى ما هناك من الأضرار مع تحديد المسئوليات عنها وتعيين المسئولين فيها، وكل ذلك لا يتم على الوجه المرغوب إلا بمساعدة البرلمان؛ ولهذا يكون من أول واجبات هذه الوزارة الاهتمام بإعداد ما يلزم لانعقاده في القريب العاجل، وتحضير ما يحتاج الأمر إليه من المواد والمعلومات لتمكينه من القيام بمهمته خطيرة الشأن.

سوء هذا ولقد لبثت الأمة زمانًا طويلا وهى تنظر إلى الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد، وترى فيها خصمًا قديرًا يدبر الكيد لها لا وكيلًا أمينًا يسعى لخيرها، وتولد عن هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيرًا سيئًا في إدارة البلاد وعاق تقدمها، فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال كثيرًا من الثقة الظن بحسن في الحكومة، وعلى إقناع الكافة بأنها ليست إلا قسما من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها وتدبير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام، ولذلك يلزمها أن تعمل ما في وسعها لتقليل أسباب النزاع بين الأفراد العائلات، وإحلال الوئام محل الخصام بين جميع السكان على اختلاف أجناسهم وأديانهم كما يلزمها أن تبث الروح الدستورية في جميع المصالح، وتعود الكل على احترام الدستور والخضوع لأحكامه، وذلك إنما يكون بالقدوة الحسنة وعدم السماح لأي كان بالاستخفاف بها، أو الإخلال بما تقتضيه.

وبين هذا، هو بروجرام وزارتي وضعته طبقًا لما أراه وتريده الأمة، شاعرًا كل الشعور بأن القيام بتنفيذه ليس من الهنات الهيئات، خصوصا مع ضعف قوتي واعتلال صحتي، ودخول البلاد تحت نظام حرمت منه زمانًا طويلًا، ولكنى أعتمد في نجاحة على عناية الله وعطف وتأييد البرلمان ومعاونة الموظفين وجميع أهالي البلاد ونزلائها. فأرجو إذا صادف استحسان جلالتكم أن يصدر المرسوم السامي بتشكيل الوزارة على الوجه الآتي، مع تقليدي وزارة الداخلية.

محمد سعيد باشا لوزارة المعارف العمومية محمد توفيق نسيم باشا لوزارة المالية أحمد مظلوم باشا لوزارة الأوقاف حسن حسيب باشا لوزارة الحربية والبحرية محمد فتح الله بركات باشا لوزارة الزراعة مرقص حنا بك لوزارة الأشغال العمومية مصطفى النحاس بك لوزارة المواصلات واصف بطرس غالي أفندي لوزارة الخارجية محمد نجيب الغرابلي أفندي لوزارة الحقانية وأدعو الله أن يطيل في أيامكم ويمد في ظلالكم حتى تنال البلاد في عهدكم كل ما تتمناه من التقدم والارتقاء.

وإني على الدوام شاكر نعمتكم وخادم سدتكم.

تحريرا في ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٢ (٢٤ يناير سنة ١٩٢٤)

سعد زغلول»

لكن حكومة الشعب التي قادها سعد زغلول وحاول من خلالها أن يحقق آمال الأمة، لم يقدر لها أن تكمل في الحكم عشرة أشهر، واضطر سعد لتقديم استقالته بعد حادث اغتيال السير لي ستاك سردار الجيش، فأهدر عمل متهور تصور من قاموا به أنهم يخدمون الوطن وآمال الأمة في أن تجني ثمار تضحياتها في ثورة ١٩١٩.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا كان سعد وكانت مواقفه؛ ومن هنا كانت مكانته التي اكتسبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث: وجوه في الثورة

شاركت في الثورة كل طبقات الأمة وكل فئات الشعب. بدأت بالطلاب وامتدت إلى المحامين والمهنيين بمختلف مهنهم والعمال والفلاحين والتجار، وعندما شكرت السلطات البريطانية موظفي الحكومة لانتظامهم في العمل، انضموا إلى الإضراب في اليوم التالي مباشرة لرسالة الشكر؛ ليؤكدوا أن طبقات الأمة على قلب رجل واحد.

كذلك تميزت ثورة ١٩١٩ بمشاركة كل الأطياف الدينية في مصر في الحراك الثوري، وفي خطاب لأحد أبرز قادة الوفد المصري وهو ويصًا واصف، كتبه في أغسطس ١٩١٩؛ يقول فيه: كان الأقباط المسيحيون، باعتراف جريدة المورننج بوست نفسها في ٩ إبريل أكثر ملكية من الملك، فكانوا من بين الأكثر تمسكا بالفكرة الوطنية وأوائل من وقعوا ضحايا من أجل قضية الاستقلال؛ كان القساوسة المسيحيون يدعون من أعلى المنابر إلى حب الوطن، كذلك كان مشايخ وعلماء الأزهر في الكنائس، وظهر على العلم الوطني الصليب مع الهلال والنجوم الثلاثة التي يحملها العلم المصري؛ كنا نرى قساوسة مسيحيين في سيارة مزينة بالأعلام الوطنية تجوب الشوارع وعليها صورة البطريرك القبطي، رأيت أحد هؤلاء القساوسة يضع يده في يد أحد العلماء المسلمين داعيا الجماهير إلى حب الوطن الأم، المنظر الأكثر تأثيرًا كان ظهور أعلام يحيط فيها الهلال الصليب وكأنه يحتضنهن مع هذا الظهور كان يصيح الجمهور الثائر: تحيا مصر الوطنية - عاش الوطن متحدا».

ولا تقتصر مشاركة الأقباط المسيحيين في الثورة على تلك الصورة النمطية لقس يخطب على منبر مسجد، بل إن البعد الأهم كان حجم مشاركة النخبة المسيحية في قيادة الثورة، إن أسماء مثل ويصا واصف وفخري عبد النور وواصف غالي وسينوت حنا ومكرم عبيد هي مجرد نماذج دالة على حجم المشاركة المسيحية في الثورة.

كذلك كانت مشاركة اليهود المصريين،حاضرة، ويذكر محمد صبري السوربوني في سياق سرده لمشاهد جنازات الشهداء جنازة شهيد يهودي ضمن جنازة مجمعة للشهداء وقد حمل بعض المشيعين خلفه علمًا عليه شعارات دينية يهودية، ويقول في وصفه للمسيرات في سياق آخر: «كان الجمهور يصفق في كل مرة عندما يركب قس مسيحي وحاخام يهودي وأحد علماء المسلمين جنبًا إلى جنب في السيارة نفسها»، هذه الحالة التي عبرت عنها كثير من أغنيات سيد درويش إبان سنوات الثورة.

يشير السوربوني كذلك إلى مشاركة بعض الجاليات الأجنبية المقيمة في مصر مع في الثورة؛ تضامنا مطالب الشعب المصري، خاصة اليونانيين الذين سقط منهم شهداء في الثورة؛ وعندما ذهب وفد من الأعيان المصريين لتعزية القنصل اليوناني، ألقى فيهم خطابًا استمر لساعة ونصف الساعة، ومما جاء فيه: «إننا نقدم هؤلاء تضحية على مذبح حريتكم».

كما أشارت بعض الصحف الأوروبية في مصرفي سياق التأكيد على عدم تعرض الثوار بالإيذاء للأجانب المقيمين في مصر إلى أن عددًا كبيرًا من الأوروبيين كانوا يسيرون في المظاهرات مجاملة للمصريين.

كذلك رصدت أكثر من دراسة عن الثورة مشاركة الأطفال من أعمار مختلفة في التظاهرات، وسقوط بعض منهم شهداء، ويوثق الرافعي والسوربوني لبعض هذه الحالات، كما يورد الأخير وصفا تفصيليا لبعض جنازات الأطفال. هذه السنوات؛ سنوات الثورة، أصبح من عادة الأسر المصرية أن يرتدي وفي أطفالهم ملابس تحمل شكل العلم المصري، وأن تؤخذ لهم الصور الفوتوغرافية بهذه الملابس أو صور وبجوارهم العلم المصري، ولم يقتصر هذا التقليد على الأطفال بل امتد إلى النساء، وهناك صورة شهيرة لأم المصريين ترتدي فستانًا بصورة العلم المصري.

وفي هذا الفصل حكايات بعض رجال الثورة ونسائها، ممن ارتبطت أسماؤهم بها في السياسة والفن وكان دورهم بارزا فيها أو كانت الثورة مدخلا لتألقهم في الحياة المصرية، ثم نماذج من الجماهير المجهولة التي الأساسية للثورة.

شكلت القاعدة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١- عبد الرحمن فهمي الرجل الذي قاد سعد الثورة من خلاله

قبل سفر قيادة الوفد لباريس تألفت لجنة مركزية للوفد في مصر لجمع التبرعات لتغطية احتياجات الوفد في الدعاية للقضية المصرية، وكان رئيس اللجنة محمود سليمان باشا، وسكرتيرها العام عبد الرحمن فهمي بك، وقد لعب هذا الأخـ دورًا رئيسًا في الأحداث التي أعقبت مرحلة الثورة الأولى؛ بل إن البعض يذهب إلى أن عبد الرحمن فهمي كان هو الرجل الأول المحرك لكل شيء داخل مصر بالتنسيق مع الزعيم سعد زغلول الذي كان يرأس الوفد المصري في باريس. ارتبط فهمي بالعمل السياسي من بعيد، فقد كان شقيقه الأكبر محمد ماهر باشا والد علي وأحمد ماهر من أصدقاء الخديو عباس حلمي، وكان من الوطنيين المصريين المعارضين للاحتلال، وانتقل عبد الرحمن فهمي بين الجيش والبوليس وأصبح مديرًا للجيزة، وترك منصبه بسبب صدامه مع الإنجليز سنة ١٩١١، فانتقل للعمل في أوقاف الخديو وهناك اصطدم بالخديو شخصيًا فأحاله إلى المعاش سنة ١٩١٣، وكان عبد الرحمن فهمي يتمتع بصلات طيبة بكل من سعد وعدلي وكذلك قيادات الحزب الوطني؛ الأمر الذي أهله لتوحيد كلمة التيارات المختلفة، ولم شملها خلف قيادة الوفد.

وعقب وصول قادة الوفد إلى باريس اكتشفوا أن الأمور انتهت وأن مصر سلمت للإنجليز، فأرسل سعد برقية إلى محمود سليمان باشا رئيس اللجنة المركزية للوفد، وصلت إليه في ١٣ مايو سنة،١٩١٩، يسميها عبد الرحمن فهمي التلغراف المشئوم جاء فيها: «منذ وصولنا وجدنا جميع الأبواب موصدة في وجوهنا وكل الجهود والمساعي لم تؤد إلى نتيجة؛ ففي النص التمهيدي لمحادثات الصلح اعترف الألمان بالحماية» أن وخشي عبد الرحمن فهمي من آثار إذاعة التلغراف على المصريين، وخاف من تسرب أخباره فقرر أن يلجأ إلى الحيلة، فأوهم أعضاء اللجنة المركزية بأن التلغراف مزور ومدسوس على،سعد وقال: إن التلغرافات لا بد أن تكتب على ورق الكربون وتظهر عليها الكتابة من الوجهين اخترع عبد الرحمن فهمي القصة ليقنع الأعضاء بزيف البرقية، وقد صدقوه جميعًا، ثم جعلهم يقسمون على عدم الحديث عن هذا الموضوع بتاتا، وأرسل من جهته برقية إلى سعد زغلول يعاتبه بأسلوب غير مباشر: «جاء تلغراف لسعادة محمود باشا سليمان فلم يخامرني أي شك في هذا التلغراف مفتعل وغير صادر منكم لأنه يصعب على جدا أن أعتقد أن سعد باشا زغلول ذلك الرجل العظيم يفتكر أن أمته البلاهة لدرجة أن تظن أن الاستقلال عبارة عن طرد أو شيء موجود في مخازن اللوفر أو غيرها بباريس يمكن مشتراه في بضعة أسابيع والعودة إلى مصر. فإذا كانت الأبواب الرسمية قد أقفلت في وجه الوفد فهناك الأبواب غير الرسمية كالمجالس والهيئات النيابية والجرائد والرأي العام صاحب السلطان الأكبر على الحكومات وكل هذه الأبواب مفتحة الطريق أمام الوفد». «أنا وكان رد سعد زغلول على عبد الرحمن فهمي: يجب أن أبين لك من الحالة هنا تمامًا وأنت لك أن تذيع في الامة ما يصح نشره وتخفي عنها ما لا يصح العلم به».

عن وجيه مع من قبل فطلب إجازة كانت الأمور تحتاج إلى قناة اتصال مستمرة بين زعيم الوفد وسكرتير اللجنة المركزية بعيدا أعين الرقابة؛ قناة تنقل لسعد الموقف بدقة في مصر، وتنقل لعبد الرحمن فهمي توجيهات سعد زغلول كانت هذه القناة أحد موظفي الجامعة المصرية واسمه محمد

كان يعمل سعد ليعمل سكرتيرًا خاصًا لسعد في باريس، وحل محله الأستاذ محمد صادق فهمي الذي أصبح فيما بعد وكيلا لكلية الحقوق، ومن خلالهما تم تبادل المراسلات. وقد سهل الأمر وجود الأثري على بهجت وكيلا للجامعة، وكان من العناصر الوطنية، وألفت سكرتارية فنية لمساعدة عبد الرحمن فهمي ضمت أحمد ماهر ومحمد صادق فهمي.

كان الاتصال يتمُ بالحبر السري المصنوع من ماء البصل، فيدون محمد وجيه تعليمات سعد به على صفحات مجلة علمية أجنبية دون أن يفتح أوراقها من أعلى، بل يفك خيط التجليد ثم يعيد تجليدها مرة أخرى بعد تدوين التعليمات، وترسل المجلات إلى الجامعة فيتسلمها محمد صادق فهمي ويسلمها إلى عبد الرحمن فهمي ويتولى الرجلان ومعهما أحمد ماهر فلك المجلات وكى صفحاتهم لتظهر الكتابة وتقرأ الرسالة.

وكانت رسائل عبد الرحمن فهمي إلى سعد تكتب أيضًا بالحبر السري، واستخدم عبد الرحمن فهمي بعض المسافرين من المصريين والأجانب ليحملهم الرسائل إلى سعد، ومن الرسائل التي وصلت إلى عبد الرحمن فهمي مشروع بيان إلى الامة كتبه سعد وترك لفهمي تقدير مدى ملاءمة إذاعته، وجاء فيه:

«إلى أبناء وطني الأعزاء يحاول الأقوياء بجميع الوسائل أن يأخذوا منكم رضاء بحمايتهم ليزدادوا قوة ويزيدوكم ضعفًا فلا تنخدعوا إذا خدعوكم. ولا تخافوا إذا هددوكم واثبتوا على التمسك بحقكم في الاستقلال التام فهو أمضى سلاح في أيديكم وأقوى حجة لكم فإن لم تفعلوا خذلتم نصراءكم وأهنتم شهداءكم وحقرتم ماضيكم وأنكرتم حاضركم ومددتم للرق أعناقكم وأعطيتم للذل ظهوركم وأنزلتم مأمنكم ذلا لا يرفع عنه عز، وإن تفعلوا كما هو أكبر ظني في عظيم أخلاقكم ومتين اتحادكم فقد استبقيتم لأنفسكم عين الحق وأعددتم لنصرتكم قوة العدل، فلا تذلوا ولو قهرتم ولا تخسروا ولو ظلمتم ولا بد من يوم يعلو فيه حقكم على باطل غيركم وينتصر فيه عدل الله على ظلم خصومكم ويتحقق بإذن الله أملي وأملكم في الاستقلال التام.

لقد كان دور عبد الرحمن فهمي في الثورة مهما للغاية إلى جانب دور قائدها الحقيقي سعد زغلول؛ قاد تنظيم الثورة السري وجعل من داره بشارع قصر العيني مركزا للعمل الثوري، وواصل نشاطه وتعرَض للاعتقال والمحاكمة، وعلى الرغم من خلافه مع قيادة الوفد في مرحلة ما بعد الثورة، لكن دوره لا يمكن أن ينكر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هدى شعراوي... إيزيس القرن العشرين

لقد كانت هدى شعراوي رمزا من الرموز النسائية التي استعادت للمرأة المصرية مكانتها البارزة على ساحة المشاركة في العمل العام جنبًا إلى جنب مع الرجل. وقد تعددت أدوارها في الحياة المصرية وتنوع عطاؤها حتى أطلق عليها المثال مختار الذي كان معاصرًا لها لقب «أمنا إيزيس»؛ تشبيها لها برمز العطاء في الحضارة المصرية القديمة. لقد ارتبط اسم هدى شعراوي دائمًا بمشاركة المرأة في ثورة ١٩١٩، وبالتحديد في تنظيم المظاهرة النسائية التي خرجت يوم ١٦ مارس وقيادتها لها لتقديم عريضة احتجاج للمعتمد البريطاني، وقد اتخذ المجلس القومي للمرأة في ذكرى هذه المظاهرة يوما للمرأة المصرية.

مصر لم تكن مظاهرة ١٦ مارس سنة ١٩١٩ إلا نقطة تحول في تاريخ إيزيس القرن العشرين، سبقتها أنشطة اجتماعية متعددة وتلاها تاريخ طويل من العطاء لمصر. لقد كانت هدى شعراوي أو هدى محمد سلطان تنتمي إلى بيت لعب دورًا مهما في السياسة المصرية، ولا يقلل الاختلاف حول هذا الدور من أهميته، كان أبوها محمد باشا سلطان من قادة الحركة الوطنية في عصر الخديو إسماعيل، وشارك في الثورة العرابية وكان رئيسًا لبرلمان الثورة، لكنه انقلب في نهاية الأمر عليها وانحاز إلى الخديو توفيق، وشقيقها الأكبر عمر سلطان أحد الذين شاركوا مصطفى كامل في تأسيس الحزب الوطني، وقد تزوجت علي شعراوي أحد الثلاثة الذين توجهوا إلى دار المعتمد البريطاني في ١٢ نوفمبر ١٩١٨، ولا شك أن هذه الأجواء أثرت على تكوين هدى شعراوي وتوجهاتها.

لقد بدأت هدى شعراوي نشاطها العام في مطلع القرن الماضي وهي تقارب العشرين من عمرها، عندما شاركت في الجهود الأهلية لمقاومة الوباء الأصفر الذي اجتاح البلاد وفي عام ١٩٠٩ نجحت في تنظيم ندوة نسائية عامة الجامعة المصرية حول المرأة الغربية والشرقية ومسألة الحجاب، وترأست هدى الجلسة الأخيرة في الندوة؛ ففتحت الباب أمام المرأة المصرية لحضور في الاجتماعات العامة، وانتزعت الاعتراف بإمكانية رئاسة امرأة لندوة عامة. وخلال الحرب العالمية الأولى سعت لتأسيس عدد من الجمعيات الخيرية؛ لتحشد فيها جهود النساء المصريات الراغبات في المساهمة في العمل العام. لكن الدور الأكبر لهدى شعراوي بدأ مع ثورة ١٩١٩، فعندما اشتعلت الثورة كان لها دور القيادة السياسية في مشاركة المرأة في الثورة، وإذا كانت السيدة صفية زغلول (أم المصريين قد تولت القيادة الروحية للحركة بحكم أنها زوجة زعيم الثورة، فإن القيادة الفعلية للحركة انعقدت منذ اليوم الأول لهدى شعراوي أعادت بقيادتها للمظاهرة النسائية الأولى فى ثورة ١٩١٩ والتي خرجت الأحد ١٦ مارس، تقاليد المرأة المصرية في مشاركة الرجل في النضال ضد كتفا بكتف كانت ظاهرة المشاركة النسائية قد غابت عن حركات الاحتجاج الشعبي في مصر منذ ما يزيد على قرن من الزمان، فآخر المشاركات النسائية الموثقة كانت تلك التي وقعت ما بين دخول الحملة الفرنسية إلى مصر التي يوم المستعمر ١٧٩٨ والثورة التي أتت بمحمد علي حاكمًا للبلاد عام ١٨٠٥.

خرجت المرأة المصرية هذه المرة للمشاركة بقوة في المجال العام، ولم تعد ثانية إلى الحرملك، وكان هذا الخروج ملمحا من الملامح المميزة لثورة ١٩١٩؛ فقد ردت مشاركة المرأة المصرية في الثورة للمصريات حقوقهن التي ضاعت، فعادت إلى الشارع كاشفة وجهها فاتحة صدرها للرصاص منهية إلى حين عصور الجمود والتخلف وقد أدت المشاركة الإيجابية الفعالة للمرأة المصرية في

الثورة إلى تغير جوهري في نظرة المجتمع إليها كما حققت هذه المشاركة مكاسب عديدة للمرأة في مصر، وقد استقبل شاعر النيل حافظ إبراهيم المظاهرة النسائية بقصيدة جاء في مطلعها:

خرج الغواني يحتججن ورحت أرقب جمعهن
فإذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهن
فطلعن مثل كواكب يسطعن في وسط الدجنة
وأخذن يجتزن الطريق ودار سعد قصدهن
يمشين في كنف الوقار وقد أبن شعورهن

لقد بدأت مشاركة النساء في المظاهرات منفردات منذ اليوم الثاني للثورة، ثم كانت المظاهرات النسائية الكبيرة التي بدأت بمظاهرة ١٦ مارس التي يصفها السوربوني بقوله: «هذا اليوم العظيم هو الذي وضع النساء من كل الطبقات في المقدمة باعتبارهن محرضات على الوطنية وقائدات للرجال»، وكان لهدى شعراوي دور رئيس في تنظيم هذه المظاهرة وما تلاها من مظاهرات نسائية. وعندما خرجت نساء مصر في مظاهرتهن التاريخية تلك حملن معهن رسالة احتجاج لتقديمها إلى معتمدي الدول الأجنبية في مصر، وقد أورد عبد الرحمن الرافعي ترجمة عربية للوثيقة في كتابه عن ثورة ١٩١٩، هذا نصها:

جناب المعتمد يرفع هذا لجنابكم السيدات المصريات أمهات وأخوات وزوجات من ذهبوا ضحية المطامع البريطانية؛ يحتججن على الأعمال الوحشية التي قوبلت بها الأمة المصرية الهادئة لا لذنب ارتكبته سوى المطالبة بحرية البلاد واستقلالها تطبيقا للمبادئ التي فاه بها الدكتور ويلسون، وقبلتها جميع الدول محاربة كانت أو محايدة.

نقدم لجنابكم هذا ونرجو أن ترفعوه لدولتكم المبجلة؛ لأنها أخذت على عاتقها تنفيذ المبادئ المذكورة والعمل عليها ونرجوكم إبلاغها ما رأيتموه وما شاهده رعاياكم المحترمون من أعمال الوحشية وإطلاق الرصاص على الأبناء والأطفال والأولاد والرجال العزل من السلاح لمجرد احتجاجهم بطريق المظاهرات السلمية على منع المصريين من السفر للخارج لعرض قضيتهم على مؤتمر السلام أسوة بباقي الأمم وتنفيذا للمبادئ التي اتخذت أساسا للصالح العام؛ ولأنهم يحتجون أيضًا على اعتقال بعض رجالهم وتسفيرهم إلى جزيرة مالطة.

لنا الأمل يا جناب المعتمد أن يحل طلبنا هذا نحن السيدات المصريات محل القبول، ولا زلتم عونًا لنصرة الحق مؤيدين لمبادئ الحرية والسلام». ونجحت هدى شعراوي كذلك في تأسيس لجنة سيدات الوفد لمساندة نشاط الوفد المصري، وفي عام ١٩٢٠ وجهت الدعوة لهدى شعراوي للمشاركة في المؤتمر النسائي الدولي ممثلة لمصر؛ فشكلت وفدا من لجنة سيدات الوفد تحت رئاستها للسفر إلى المؤتمر، لكن أزواج عضوات الوفد منعوهن من السفر! وتروي هدى شعراوي الواقعة قائلة: رأيت وجوب تلبية الدعوة خدمة للمرأة المصرية؛ فأقنعت بعض الصديقات بالسفر إلى المؤتمر وأبرقت إلى أوروبا بذلك، ولكن الأزواج خذلونا في اللحظة الأخيرة ورفضوا بعد قبول أن يسمحوا لزوجاتهم بالسفر؛ فتحطم أملي، واضطررت إلى إرسال برقية أعتذر فيها بمرض المندوبات بالحمى الإسبانيولية التي كانت منتشرة إذ ذاك، ولعلي أشكر للحمى وجودها الذي مكنني من تقديم عذر مقبول».

وبعد ثلاث سنوات تمكنت هدى شعراوي وزميلاتها من السفر لكن بعد أن أسسن الاتحاد النسائي المصري، ففي سنة ١٩٢٣ أسست أول اتحاد نسائي مصري، وترأست وفد مصر إلى مؤتمر الاتحاد

النسائي الدولي في روما في نفس العام؛ فأكدت للمرأة المصرية كيانها على ساحة الحركة النسائية العالمية، ودفعت الاتحاد إلى تبني قضية استقلال مصر ضمن القضايا التي يساندها. وقد ظلت مواقف الاتحاد النسائي المصري في أثناء قيادة هدى شعراوي له صلبة فى القضايا الوطنية والديمقراطية وقد تبدى ذلك واضحا في أزمة الانقلاب الدستوري الذي قاده إسماعيل صدقي في الثلاثينيات، وفي موقف معاهدة ٣٦، وامتد نشاط هدى شعراوي السياسي إلى المجال العربي فسعت إلى عقد أول مؤتمر نسائي عربي للدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني وكان ذلك في سنة ١٩٣٨، وفي عام ١٩٤٤ ظهر إلى الوجود الاتحاد النسائي العربي الذي شاركت هدى شعراوي بالجهد الأكبر في تأسيسه وانتخبت أول رئيسة له حتى وفاتها في ديسمبر ١٩٤٧.

الاتحاد من ولم يقتصر نشاط هدى شعراوي على العمل السياسي، بل امتدت جهودها إلى الساحة الثقافية والفنية فكانت من الرعاة البارزين لحركة الفنون الجميلة في مصر من خلال مشاركتها في عدد من الجمعيات الأهلية الفنية منذ مطلع العشرينيات من القرن الماضي. لقد عاصرت هدى شعراوي تأسيس مدرسة الفنون الجميلة سنة ١٩٠٨، وتابعت تخرج الجيل الأول من أبناء هذه المدرسة الذي ضم رواد الحركة الفنية في مصر وفي أعقاب ثورة ١٩١٩ دعت هدى شعراوي إلى مشروع لتشجيع الفنانين المصريين وكانت على رأس لجنة من السيدات نظمت معرضًا لأعمالهم، وكانت هدى شعراوي وراء تنظيم معرض الربيع للفنون الجميلة الذي أقامته الجمعية المصرية للفنون برعايتها وافتتحه الزعيم سعد زغلول.

كانت هدى شعراوي تسعى إلى تحقيق هدف مزدوج تشجيع المبدعين الشبان من ناحية وترقية الذوق الفني في المجتمع من ناحية أخرى، ولم تحل الأنشطة السياسية المتزايدة لهدى شعراوي بينها وبين رعايتها للفنون الجميلة؛ أعقاب وفاة المثال مختار في مارس ١٩٣٤ شكلت هدى شعراوي مع مجموعة من الأدباء والفنانين والمفكرين جمعية باسم «جمعية أصدقاء مختار» وتولت رئاستها وكان هدف الجمعية جمع تراث مختار الفني وإقامة متحف ففي من النحاتين له، لكن جهود الجمعية امتدت لتشجيع الحركة الفنية من خلال مسابقة جائزة مختار في النحت التي بدأت عام ١٩٣٥ وتخرجت فيها أجيال المصريين، ثم امتدت المسابقات إلى مجالات الفن التشكيلي الأخرى.

هذا جزء من حكاية هدى شعراوي الشخصية الفذة متعددة الإسهامات في الحياة المصرية، التي كانت وجها من وجوه الثورة.

٣- فخري عبد النور... الوطني الغيور

فخري عبد النور أحد قادة الطبقة الثالثة من الوفد، انضم إلى الوفد في الأسابيع الأولى لتشكيله، ولعب دورًا بارزا في الثورة بمراحلها المختلفة، وكان من الحلقة الضيقة المقربة من سعد زغلول، وقد سجل في عام ١٩٤٢ ذكرياته عن سنوات الثورة معتمدًا على كثير من الوثائق وعلى تدوينات متفرقة كان يسجلها بشكل متقطع ومستندًا إلى ذاكرته القوية التي جعلت سعدا يصفه الوفد» أو «قاموس الوفد» أو «صاحب الوقائع السعدية» كما ذكر بأنه «مؤرخ مصطفى أمين في تقديمه لمذكرات فخري عبد النور؛ كما لقبه كذلك بالوطني الغيور، ذلك اللقب الذي ظل لصيقًا به طوال حياته.

من وينتمي فخري عبد النور إلى واحدة من العائلات الكبيرة في جرجا والتي كانت معروفة بنشاطها في المجال العام، وكان الرجل من مؤسسي «الجريدة» لسان حال حزب الأمة، كما كان عضوًا بالحزب منذ تأسيسه عام ١٩٠٧، وعندما بدأت أحداث الثورة لم يكن فخري عبد النور قد أكمل عامه الأربعين. جاء لقاء عبد النور بالثورة في أيامها الأولى؛ عندما التقى مصادفة بعلي شعراوي باشا في مكتب ناظر المدرسة الناصرية في الأسبوع التالي لزيارة سعد ورفاقه لدار المعتمد البريطاني وسمع منه عن الزيارة وعن خطوات تشكيل الوفد المصري. وفي مساء اليوم نفسه طرح على مجموعة من أعيان الأقباط ومثقفيهم في نادي رمسيس الذي كان يضم كبار الأقباط ما سمعه من علي شعراوي، فلاحظوا أن أسماء الوفد ليس بينها اسم أحد الأقباط، وقرروا انتداب ثلاثة منهم يتوجهون لمقابلة سعد لمناقشته في ضم شخصيات قبطية إلى الوفد، وكان فخري عبد النور أحد الثلاثة، إلى جانب ويصا واصف وتوفيق أندراوس وكان من نتائج هذا اللقاء ضمُ عدد من الأقباط إلى هيئة الوفد أولهم واصف بطرس غالي وتبعه سينوت حنا وجورج خياط، وشهدت الأسابيع والأشهر التالية مشاركة قبطية واسعة فى حركة الوفد ثم فى الثورة؛ ويقول فخري عبد النور في مذكراته: «هذا المظهر كان أبرز كسب للحركة الوطنية المصرية وهي لم تزل تخطو خطواتها الأولى، لقد حققت به ما عجزت الحركة الهندية عن تحقيق مثله، فبينما كانت الهند تخوض في بحار الدماء بما كان يحدث بين المسلمين والهندوس من أبنائها في أشد أوقات صراعهم الاستعمار من النزاعات وفي الوقت الذي كان الأيرلنديون في ثورتهم على إنجلترا ينقسمون على أنفسهم، كانت مصر تخط بيمينها صفحات تاريخها شعارها الرائع في الوحدة القومية».

مع في الثورة، لقد كان هذا اللقاء مع سعد في نوفمبر ١٩١٨ اللقاء الأول بينهما في ومن يومها أصبح فخري عبد النور أحد أعمدة الوفد المصري، وأحد رجال الحلقة الضيقة المحيطة بسعد، وإن كان اسمه لم يظهر ضمن هيئة الوفد إلا في عام ١٩٢٢ عندما تصدت الطبقة الثالثة من الوفد لقيادة الحركة بعد نفي سعد ورفاقه والحكم على رجال الطبقة الثانية بالإعدام ثم تخفيف الحكم للسجن؛ فعندما ألف سعد الوفد نظمه في شكل طبقات سرية؛ إذا نفيت طبقة أو اعتقلت ظهرت الطبقة التي تليها.

وعندما قامت الثورة في مارس ١٩١٩ كان فخري عبد النور في بلدته جرجا بسبب تلقي العزاء في وفاة أخيه، وهناك خرجت أول مظاهرة في المدينة يوم ١٥ مارس من منزله وكان هو على رأسها متوجهة إلى دار المركز وهي تهتف بسقوط الحماية.

وبعد قرار الإفراج عن سعد والسماح له ولرجال الوفد بالسفر إلى باريس؛ قرر سعد تشكيل لجنة مركزية للوفد في القاهرة تكون همزة الوصل بين الوفد في باريس والشعب في مصر، وتتولى قيادة العمل في الداخل، وجمع التبرعات لدعم نشاط الوفد وتشكلت اللجنة برئاسة محمود سليمان باشا وتولى سكرتاريتها عبد الرحمن فهمي بك وكان فخري عبد النور بك، وكان فخري عبد النور من ضمن أعضائها.

عدد من المناسبات وخلال عضويته في اللجنة المركزية مثل الوفد في والأحداث المهمة؛ فكان ضمن ممثلي الوفد في استقبال جثمان الزعيم محمد فريد في الإسكندرية وتشييع جنازته بعد أن نجح الحاج خليل العفيفي في نقل الجثمان إلى مصر على نفقته وفي اللجنة المشكلة لإعداد الاحتفال بعيد الجهاد الوطني عام ١٩٢٠؛ وفي اللجنة التي أعدت لاستقبال أعضاء الوفد العائدين من أوروبا مطلع عام،١٩٢١، كما مثل لجنة الوفد المركزية في حضور جلسات المحاكمة العسكرية لعبد الرحمن فهمي وأعضاء جمعية الانتقام، وخلال نظر القضية تمَ توجيه الاتهام له بمحاولة التأثير على الشهود، وتفتيش منزله وبدأت سلطات الاحتلال تنتبه له.

وفي صيف عام ١٩٢١ نجح باكتساح في انتخابات المجلس المحلي بجرجا مع كل المؤيدين للوفد على الرغم من تدخلات الإدارة لإسقاطه، وقاد وفدا من أهالي جرجا إلى القاهرة لإعلان تأييدهم لسعد زغلول، وفي المقابل شكل مدير المديرية وفدًا صغيرًا برئاسته لإعلان تأييد الحكومة، وقد تعرض فخري عبد النور لأول محاكمة بأمر من عبد الخالق ثروت باشا بتهمة إهانة وفد جرجا الحكومي عندما بدرت منه حركة احتقار للوفد الحكومي حسب تعبيره، لكن المحكمة برأته.

يتواصل جهاد فخري عبد النور طوال سنوات الثورة، ويظهر دوره في الصدارة بعد نفي سعد إلى سيشيل والقبض على أعضاء الطبقة الثانية من الوفد وتقديمهم إلى محاكمة عسكرية وإصدار الأحكام ضدهم، وتتشكل الطبقة ومن بين رجالها فخري عبد النور؛ هذه الطبقة التي قال عنها سعد: «لو أن هذه الطبقة لم تتقدم الصفوف بعد محاكمة حمد باشا وإخوانه لظن الثالثة أللنبي أنه نجح في القضاء على الحركة وانتهى الأمر». واجتمعت الهيئة الوفدية الجديدة ببيت الأمة فى أثناء محاكمة أعضاء الطبقة الثانية، واقترح عبد النور إصدار بيان قوي إلى الأمة يعلنون فيه التضامن مع المعتقلين. وبالفعل صدر البيان ٩ أغسطس ١٩٢٢؛ وفي ١٤ أغسطس تم اعتقال فخري عبد النور وظل معتقلًا حتى ٣ فبراير ١٩٢٣ متهما بأنه يقف وراء عمليات الاغتيال التي تطال الإنجليز في مصر؛ وعندما خرج من المعتقل توجه إلى بيت الأمة قبل أن يذهب إلى بيته.

يوم ولم تمض إلا أسابيع قليلة حتى عاودت سلطات الاحتلال اعتقال فخري عبد النور وأعضاء الطبقة الثالثة من الوفد على أثر بيان جديد أصدروه؛ وبعد تشكيل حكومة يحيى باشا إبراهيم أفرج عن الجميع ما عدا فخري عبد النور الذي كان متهما في قضايا جديدة بالتحريض على قتل الإنجليز، واستمر تلفيق قضايا جديدة له في أثناء اعتقاله، ولم يفرج عنه إلا في ١١ يونية ١٩٢٣.

خاض فخري عبد النور كل الانتخابات البرلمانية منذ انتخابات يناير ١٩٢٤، وانتخب نائبًا لجرجا في كل انتخابات حرة جرت ولم يتم تزويرها، وتُوفي في ساحة العمل الوطني وهو يخطب تحت قبة مجلس النواب في ٩ ديسمبر.١٩٤٢

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٤- محمد صبري السوربوني... وتوثيق الثورة

«ما تكتبه يا فالح ها كتبه أنا»... قال الشاب الصغير لقائد الثورة: إذا كنت تريد للثورة أن تستمرَ فلا بد قبل السلاح والحماسة، أن تكتب تاريخ مصر؛ فكانت هذه الكلمات ردَ سعد عليه؛ ولم يكذب الشاب خبرًا كما يقولون؛ إنه الشاب محمد صبري.

عندما اشتعلت الثورة في مصر في التاسع من مارس عام ١٩١٩ احتجاجًا على قيام سلطات الاحتلال البريطانى بالقبض على سعد زغلول وصحبه من قادة الوفد المصري ونفيهم إلى مالطة؛ كان الشاب محمد صبري (١٨٩٤ - ١٩٧٨) الذي اشتهر فيما بعد بالسوربوني، طالبًا يدرس التاريخ في جامعة السوربون، وكان منضمًا للجمعية المصرية بباريس، وأحد الناشطين البارزين فيها، ومن خلال نشاطه في الجمعية المصرية، تعرف على قادة الوفد عندما فرضت الثورة على سلطات الاحتلال إطلاق سراح سعد ورفاقه وسمحت لهم بالسفر لباريس؛ محمد صبري وقتها سكرتيرًا لزعيم الوفد المصري في باريس.

وفي أثناء أحداث الثورة كتب محمد صبري السوربوني، كتابًا صغيرًا بالفرنسية صدر في باريس سنة ١٩١٩، بعنوان الثورة المصرية من خلال وثائق حقيقية وصور التقطت أثناء الثورة»، كان الكتاب فى الأساس يهدف إلى الدعاية للقضية المصرية وتعريف الرأي العام الأوروبي بها، كتب كتابه والأحداث مشتعلة، وزوَده بمجموعة من الوثائق والصور الفوتوغرافية التي تسجل جرائم الاحتلال الإنجليزي ضد الشعب المصري، وجاء كتابه هذا في سياق دعم المصريين بباريس للثورة، وقد اختار مخاطبة الرأي العام الغربي بلغته؛ فكتب بالفرنسية، ودعم وجهة نظره - التي هي وجهة نظر قيادة الثورة في الوقت ذاته - خلال الوثيقة والصورة، واعتمد على ما كان ينشر في الصحف الإنجليزية والأمريكية والفرنسية عن الثورة المصرية ليكون أكثر إقناعا للرأي العام الغربي، كما استعان ببعض ما نشر في الصحف التي كانت تصدر في مصر بالفرنسية من والإنجليزية وبما نشرته بعض الصحف الموالية للاحتلال الصادرة بالعربية كجريدة المقطم.

وكان الكتاب أول كتب صبري في التاريخ، كما كان أول كتاب يصدر عن ثورة ١٩١٩، وأصبح الشاب بعد سنوات قليلة واحدًا من أعمدة المدرسة القومية في التاريخ المصري، وكتب في التاريخ والأدب والاجتماع، وصدرت له بعد هذا الكتاب كتب عديدة عن تاريخ مصر الحديث؛ وبالمثل صدرت بعد هذا الكتاب أيضًا عشرات الكتب عن ثورة ١٩١٩ كبرى الثورات المصرية في العصر الحديث. لقد ترك لنا سعد زغلول مذكراته التي تعد وثيقة حية لتاريخ مصر، وترك لعمدة المشتغلين بالتاريخ محمد صبري السوربوني وصيته بأن يكتب التاريخ، فكتب وما زلنا نكتب.

يسعى صبري في كتابه للإجابة عن سؤال: لماذا قامت الثورة؟ ويصف الثورة فيقول:

«بالتأكيد إن هذه الثورة واحدة من أجمل الثورات في التاريخ؛ لقد كانت عفوية سببتها سياسة الخنق المنظم ضد شعب من أربعة عشر مليون نسمة، مجمع كله على حقه في الاستقلال والحرية. هذه الكلمات القليلة «سياسة الخنق المنظم» تلخص وحدها كل الأسباب البعيدة والقريبة للثورة، وإذا كان من الضروري أن خطا فاصلًا نضع. بين الأسباب البعيدة والقريبة فإن سنة ١٩١٤ هذا الخط الفاصل؛ ذلك أنها السنة التي أعلنت فيها - بشكل غير شرعي هي - الحماية البريطانية».

بهذه الفقرة يفتتح محمد صبري كتابه ويسترسل في شرح الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة، لقد كانت سياسات الاحتلال منذ اليوم الأول تثير غضب المصريين وحنقهم، ومع مرور الوقت أخذ الشعور الوطني الرافض لوجود الاحتلال يتنامي؛ ويرى صبري أن تنامي هذا الشعور الوطني والسعي نحو الاستقلال التام كانا أمرين طبيعيين؛ وفي المقابل كانت بريطانيا تفرض عزلة تامة على المصريين وتحاصر الشعب داخل وطنه، ولم يختلف حال المصريين في الخارج عن حال أهلهم في الوطن فيما يتعلق بغياب المعلومات عنهم، ويقول محمد صبري: «لقد وصلت سياسة الخنق تلك إلى الدرجة التي جعلت أي مصري في أوروبا لا يستطيع معرفة ما الذي كان يحدث في مصر، وبصدفة فريدة يظهر الإجماع وعفوية الشعور الوطني، قدمت الجمعيات المصرية التي كانت قد تشكلت في العواصم الأوروبية، وأثناء تقديم الوفد المصري في الداخل، لاعتراضاته الاعتراضات والمطالب الوطنية نفسها». يوثق محمد صبري في كتابه أحداث الثورة ومشاركة مختلف طبقات الأمة وفئاتها فيها، بل يوثق مشاركة بعض مجموعات من الجاليات الأجنبية في مصر في الثورة. ويختم السوربوني هذا الجزء من كتابه بملف وثائقي عن جرائم الاحتلال البريطاني في قمع الثورة المصرية مركزا على أحداث نزلة الشوبك بمديرية الجيزة، والتي شهدت فظائع مروعة لقوات الاحتلال تجاه أهالي القرية. ومن الجدير بالذكر أن السوربوني أصدر جزءًا ثانيا من الكتاب صدر أيضًا بالفرنسية في باريس سنة ١٩٢١، وبعد انتهاء مرحلة الثورة الأولى أكمل فيه بهدوء شرح القضية المصرية، وتتبع فيه تطورات الوضع في مصر في عامين؛ فقد كان لاستمرار الثورة لأسابيع وشهور بعد الإفراج عن الزعماء أثره في سعي بريطانيا للدخول في مفاوضات لتحديد شكل علاقتها بمصر، وفي هذا السياق تشكلت لجنة برئاسة ألفرد ملنر وزير المستعمرات في الحكومة البريطانية لتحقق أسباب الثورة المصرية، وتضع تصورًا من خلال استطلاع رأي الساسة المصريين لشكل العلاقة بين البلدين. ومرة أخرى كانت مقاطعة المصريين للجنة تعبيرًا عن استمرار الثورة ورفض المماطلة البريطانية، حتى أضحى هذا الموقف مثلا في الثقافة المصرية يشير إلى حدة المقاطعة والخصام، عندما كانت توصف مقاطعة إنسان لآخر بأنها ولا مقاطعة لجنة ملنر». وفي نهاية الأمر، لقد نجحت الثورة في إلغاء الحماية على الرغم من إقرار مؤتمر الصلح لها، ومنحت بريطانيا استقلالا من طرف واحد لمصر، بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، لكنه كان استقلالًا منقوصا؛ فاستمرت مقاومة الاحتلال لسنوات في وسنوات.

ومثلما الأمة وقد ناقش السوربوني مشروع ملنر الذي رفضه الوفد ورفضته اعتمد في الجزء الأول على الوثائق فقد أفرد قسما من الجزء الثاني من الكتاب لوثائق مشروع لجنة ملنر، وللتعديلات التي أدخلت عليها، كما يتتبع ردود الفعل في الصحافة الأوروبية والأمريكية على المشروع.

والملاحظ على الكتاب خاصة في جزئه الأول أن صوت المؤلف لا يظهر فيه إلا قليلا بين الوثائق والفقرات المقتبسة من المقالات الصحفية المعاصرة للحدث والموثقة له. وإذا كان محمد صبري قد سعى من خلال عمله وقت صدوره إلى التأثير في الرأي العام الغربي واجتذابه إلى جانب القضية المصرية، فإن الكتاب بجزأيه أصبح وثيقة حية، وعملا توثيقيا من الطراز الأول جعل من صاحبه موثقًا للثورة المصرية بحق.

وقد قدم لجزأي الكتاب في طبعته الفرنسية البروفيسور أولار أحد أساتذة محمد صبري؛ وأستاذ تاريخ الثورة الفرنسية؛ وقد جاءت المقدمتان في شكل رسالتين قصيرتين موجهتين من الأستاذ إلى تلميذه بعد أن قرأ مسودة كل جزء، وتضمنت الرسالتان إشادة بمنهجية صبري في البحث والاعتماد

على الوثائق، لكن الأهم من ذلك تأكيده على استلهام الثورة المصرية لمبادئ الثورة الفرنسية؛ الأمر الذي كان يحرص عليه صبري حرصًا شديدًا؛ فكما يقول الدكتور مجدي عبد الحافظ أحد مترجمي الكتاب في تقديمه للجزء الأول من الكتاب: كتاب الثورة المصرية إذن لم يكن كتابًا مدرسيًا، ولكنه كان كتابا يحمل رسالة وطنية حاول صاحبه القيام بها في وقت حرج، وهو الوقت الذي اندلعت فيه الثورة، ولم يخمد أوارها بعد؛ ومن ثم تصبح المهمة الأساسية التي يمكن أن يضطلع بها ليؤثر على الرأي العام في أوروبا بشكل عام، والرأي العام الفرنسي بشكل خاص، أن يبذل جهدًا في تقريب ما يحدث في مصر مع قيم الثورة الفرنسية، وقيم الثقافة الفرنسية بشكل عام حتى يكسب التعاطف القضية بلاده». ومن هنا نجد صفحات الكتاب ملأى بالمقارنات بين أحداث الثورتين المصرية والفرنسية وبالاستشهادات من كتابات المفكرين الفرنسيين؛ فهو يحاول أن يقدم الثورة المصرية باعتبارها امتدادًا لأفكار الثورة الفرنسية وقيمها.

لقد واصل محمد صبري الكتابة عن تاريخ مصر الحديث وكان رائدا للمدرسة القومية المصرية في الكتابة التاريخية، وعلى الرغم من كثرة مؤلفاته وقيمتها الكبيرة، فإن عمله هذا يكتسب أهمية كبيرة باعتباره شهادة معاصرة عن الثورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥- رئيس الحكومة الذي ساند الثورة

إنه حسين رشدي طبوزاده باشا ذو الأصول التركية، الذي كان يشغل منصب رئيس مجلس النظار أو ناظر النظار منذ إبريل سنة ١٩١٤، وعاصر إعلان الحماية البريطانية على مصر وكان وقتها نائبًا للحضرة الخديوية في أثناء سفر عباس حلمى الثانى خارج البلاد إلى جانب عمله ناظرًا للنظار، وحمل على كاهله عبء التعامل مع سلطات الحماية في فترة الانتقال من نظام الخديوية إلى نظام السلطنة، وكان أول من حمل لقب رئيس مجلس الوزراء في مصر في إطار التحولات التي صاحبت إعلان السلطنة في مصر، وذلك في ديسمبر سنة ١٩١٤، واستمر في منصبه حتى مارس سنة ١٩١٩، أي أنه عاصر سنوات الحرب كلها واستمرَ حتى بدايات الثورة، بل كانت استقالته وبيان الوفد تعقيبا على الاستقالة سببًا في نفي سعد وبالتالي انفجار الثورة.

يجمع المؤرخون الذين درسوا ثورة ١٩١٩ وأرخوا لها على أن الموقف الوطني الحكومة حسين باشا رشدي ساعد على انتشار الحركة التي أدت إلى ثورة مارس ١٩١٩ واتساعها، فقد كانت حركة الوفد المصري في أسابيعها الأولى تتم بالتنسيق الكامل بين سعد وزملائه من ناحية ورئيس الوزراء حسين رشدي وعدلي يكن أهم أركان وزاراته من ناحية أخرى، وكان هناك دعم واضح من الحكومة لحركة التوكيلات، كان الجميع يوقن أن هناك هدفًا مشتركا يتمثل في الوصول إلى استقلال البلاد، وأن التكاتف والتعاون والوحدة سبيل وحيد لتحقيق هذا الهدف.

كان حسين رشدي باشا يفكر مع نهاية الحرب في الوسيلة التي يتحقق بها وعد الإنجليز بمنح مصر استقلالها مقابل موقفها في أثناء الحرب العالمية الأولى. ولما كان هو الذي تعامل مع سلطات الاحتلال منذ اللحظة الأولى لقيام الحرب وإعلان الأحكام العرفية باعتباره قائم مقام خديو مصر، كما أنه كان أول رئيس وزراء بعد إعلان السلطنة فكانت عليه مسئولية التعامل مع سلطات الحماية البريطانية وكان رشدي باشا ورجال حكومته ومنهم عدلى باشا يكن على اقتناع كامل بأن استقلال مصر مرتبط بانتهاء الحرب وانتصار بريطانيا وحلفائها؛ ومن هنا فقد كانت الحكومة المصرية وعلى رأسها حسين رشدي تفكر في سبل المطالبة باستقلال البلاد، وتعد العدة لتشكيل وفد رسمي يتوجه إلى لندن لمناقشة حكومة جلالة الملك في أمر مصر بعد الحرب، وكانت رؤية رشدي وعدلي أن وجود وفد غير رسمي أو «شعبي» إلى جانب الوفد الرسمي يدعم المطالبة بالاستقلال، ويعزز جهود الحكومة التي لا تستند إلى أي مشروعية شعبية، وسعد يملك هذه المشروعية باعتباره الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية، وبخبرته السياسية الطويلة فإنه أفضل من يرأس هذا الوفد؛ لذلك كان كاملا سعد بين ومجموعته ورئيس مجلس الوزراء حسين باشا رشدي.

التنسيق وعنما بدأت حركة جمع التوكيلات للوفد المصري أصدر رئيس الحكومة ووزير الداخلية حسين باشا رشدي تعليمات صريحة إلى مديري الأقاليم بعدم التعرض لحركة التوقيع على توكيل الوفد، ولا شك في أن هذا الموقف دعم الحركة وطمأن الناس ودفعهم للتوقيع على التوكيل بسهولة ويسر.

وإذا كانت حكومة حسين رشدي باشا قد سمحت للوفد بجمع التوقيعات على التوكيلات فإن موقف السلطات البريطانية كان مختلفًا؛ لقد رأت السلطة العسكرية البريطانية أن حركة التوكيلات توشك أن تكون أساسا لنهضة وطنية عامة تطالب بالاستقلال التام للبلاد فعملت على إحباطها في

مهدها؛ فضرب المستشار البريطاني لوزارة الداخلية المصرية عرض الحائط بأوامر رئيس الوزراء بعدم التعرض لحركة جمع التوقيعات وأصدر أوامر مباشرة إلى المديرين بمنع تداول التوكيلات أو التوقيع عليها بكل ما لديهم من قوة، وبالفعل صادرت وزارة الداخلية بعض التوكيلات التي تم التوقيع عليها، وبدأت في ملاحقة كل من يقوم بجمع التوقيعات.

وكان رد فعل الوفد المصري رسالة إلى حسين رشدي باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية؛ وقد أكد حسين رشدي باشا في رده على رسالة سعد والوفد موقف حكومته المؤيد لحركة جمع التوقيعات على التوكيل؛ فاتسعت الحركة وازدادت نشاطا.

تضامنًا وعندما استمرت الأمور في تصاعدها قدم رشدي باشا رئيس الوزراء استقالته مع الوفد واحتجاجًا على منع الوفد الرسمي والوفد الشعبي من السفر في نهاية عام ١٩١٨، لكن السلطان فؤاد رفضها وقامت بريطانيا باستدعاء مندوبها السامي السير ونجت إلى لندن للتشاور معه في أحوال البلاد، فغادر مصر عن طريق بور سعيد يوم ٢١ يناير.

وفي ١٠ فبراير سنة ١٩١٩ قدم حسين رشدي باشا رئيس الوزراء خطاب استقالة جديدًا للسلطان فؤاد يكشف نصه عما كان عليه ساسة ذلك الزمن من قوة موقف واعتداد بالنفس وحفاظ على حقوق الوطن والأمة، قال رشدي باشا موجها خطابه للسلطان:

علي أثر كتابي المرفوع إلى سدتكم العلية بتاريخ ٣٠ ديسمبر سنة ١٩١٨ الذي ألححت فيه ذلك الإلحاح على عظمتكم بقبول استعفائي قد كنت رضيت من باب التوفيق بالاتفاق الآتي بيانه وهو أن صاحب المقام الجليل المندوب السامي ينتهز فرصة سفره إلى لندرة فيشرح شفهيا للحكومة البريطانية أنني بعد وصول الحالة إلى الحد الذي بلغته أصبحت لا أكتفي بما عرض عليَ وقتئذ من سفري أنا وزميلي عدلي باشا إلى لندره في النصف الأول من فبراير وأنني أشترط لسحب استعفائي شرطا أساسيا هو إباحة السفر إلى أوروبا لمن يطلب من المصريين وكان من ضمن ذلك ورود جواب الحكومة البريطانية بالتلغراف في بحر مدة مناسبة من وصول المندوب السامي إلى إنجلترا... على أنه قد مضت عشرة أيام على الأقل بعد الوقت الذي لا بد أن يكون المندوب السامي وصل فيه إلى لندره، ومع ذلك فلم يصلني جواب ما، ويستحيل عليَ أن أقبل أي تأخير جديد، وإنني أعتبر في حِلٍ من القيام ولو مؤقتا بأي عمل، حتى ولو كان مستعجلا... فأعود إلى التمسك بكتابي المشار... والتمس من عظمتكم بكل إلحاح إنهاء حالة شاذة قد زاد طول العهد عليها». عقب الاستقالة قبلت الحكومة البريطانية دعوة رشدي وعدلي وحدهما إلى لندن، إلا أنهما رفضا السفر قبل السماح لأي مصري يرغب في السفر بممارسة حقه الطبيعي، فاضطر السلطان فؤاد إلى قبول استقالة الحكومة في أول مارس سنة ١٩١٩، وفي اليوم التالي وجه الوفد المصري خطابًا شديد اللهجة إلى السلطان فؤاد ينتهي بالعبارة التالية:

التيم أمته... دفعنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أن تلعب الآن أشد ما تكون رجاء فى استقلالها وأخوف ما تكون من هي به أيدي حزب الاستعمار، والتي تطلب إليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها، ويقف في صفها، فتنال بذلك،غرضها وإنه على ذلك قدير».

٦ وقد استغل الوفد هذه الاستقالة لتصعيد الموقف فى الداخل والتوجه برسائل الاحتجاج إلى الخارج، فجاء الإنذار البريطاني لسعد ورفاقه، ثم نفيهم؛ فانفجرت الثورة، واستمرت أحداثها حتى يوم الإفراج عن المنفيين في ٧ إبريل. وفي يوم ٩ إبريل أعاد السلطان فؤاد تكليف رشدي باشا بتشكيل الحكومة مرة أخرى بعد أن ظلت البلاد بلا حكومة منذ استقالته في أول مارس، وقد قبل

الرجل تأليف الوزارة مرة أخرى على أساس أن إنجلترا رضخت وقبلت مطالب المصريين بإلغاء القيود على السفر عامة والسماح بسفر الوفد المصري إلى باريس، وقد سافر سعد بالفعل يوم ١١،إبريل واستبعد رشدي من وزارته الجديدة الوزراء الثلاثة الذين لم يتضامنوا مع موقفه المساند لمطالب الأمة وهم: إسماعيل سري باشا وأحمد حلمي باشا وأحمد زيور باشا الذي شكل فيما بعد أول حكومة انقلاب دستوري بعد صدور دستور ١٩٢٣، لكن رشدي باشا استقال مرة أخرى بعد أسبوعين عندما عجز عن تنفيذ ما تعهد به عند تشكيل الأمة». الحكومة من الوصول إلى «حل يرضي الأمة»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٦- ابن القباقيبي... حكاية طفل مصري ثائر

كان الجامع الأزهر قد تحول من مسجد جامع في المدينة القديمة يتوجه إليه المسلمون للصلاة أو لطلب العلم إلى ساحة رئيسة من ساحات الخطابة أثناء الثورة، يتجمع فيه خطباء الثورة وتحتشد داخله جموع المصريين بغض النظر عن دينهم، فخطب على منبره الشيخ القاياتي والشيخ الزنكلوني والشيخ دراز إلى جانب القمص سرجيوس والقمص بولس غبريال والأساتذة يوسف الجندي وإبراهيم عبد الهادي ومحمد عبد المجيد بدر والدكتور زكي مبارك والدكتور محجوب ثابت ولما استشعرت السلطات البريطانية خطر تحول الأزهر إلى معقل من معاقل الثورة؛ حاولت أن تسدَ هذا الباب، فاستدعت دار الحماية الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي شيخ الجامع الأزهر، وطلبت منه إغلاق أبواب الأزهر أمام الناس، فرفض بشدة، وأكد أن الأزهر مسجد جامع تقام فيه الصلوات ولا يمكن أن يغلق أبوابه في وجه من يقصده من المصلين فطلبت السلطات البريطانية منه فتحه في مواقيت الصلوات الخمس والجمع فقط، فرفض أيضًا وأصر على أن يظل الأزهر مفتوحًا طوال النهار والليل كما العادة.

هي وأعد الثوار العدة لعقد اجتماع حاشد يوم ٥ إبريل، وتمت الترتيبات لعقده بالأزهر باعتبار ساحته أكبر الساحات المتاحة والآمنة في نفس الوقت، ووصلت أنباء الإعداد للاجتماع إلى السلطات الإنجليزية فسدت الطرق والمنافذ المؤدية إلى منطقة الأزهر، وفرضت حصارًا على الجامع والحي، وحشدت قوات عسكرية ضخمة بصورة تمنع وصول الجمهور إلى الجامع. عندها قرر الداعون للاجتماع نقله إلى مكان آخر، واتجه تفكيرهم إلى جامع ابن طولون الذي يقع في موقع حصين فوق ربوة مرتفعة مجاورة لقلعة الكبش وتلال زينهم، في مكان متوسط بين حي تتمكن القوات البريطانية من الوصول إلى الجامع ومنع الاجتماع مثلما فعلت الأزهر، قام الأهالي بحفر الخنادق ووضع المتاريس في الطرق والشوارع في السيدة زينب وحي الخليفة،، وحتى ٧ المؤدية إلى جامع أحمد بن طولون، خصوصا في شارع الصليبة الطولونية. وعندما توجهت فرقة عسكرية بريطانية إلى المكان أعاقتهم الخنادق والمتاريس عن الوصول وتلقفهم الأهالي بالحجارة من كل اتجاه؛ فأطلقوا النار بشكل عشوائي على الجماهير؛ فسقط عدد من الشهداء وعدد من الجرحى، كان من بينهم غلام صغير مشهور بابن القباقيبي؛ ربما لأن والده كان صانعا للقباقيب أو بائعا لها.

فماذا فعل الفتى حتى يكون مصيره السقوط شهيدا؟ كان الفتى الصغير قد أقام حصنًا ترابيًا عند سبيل أم عباس لمنع تقدم الجنود إلى الجامع من ناحية القلعة، فأردته رصاصة جندي إنجليزي قتيلًا وهو واقف فوق حصنه الذي بناه.

سنه ١٢ وقد حقق عبد الرحمن الرافعي قصة هذا الفتى وسأل أهل الحي عنه، فعرف أن اسمه محمد إسماعيل ويسكن في شارع الركيبة بقسم الخليفة، وأن سنة، وأن الوفاة نجمت عن طلق ناري من بندقية جندي إنجليزي، وقد سجلت الواقعة وسبب الوفاة في دفاتر الوفيات التي رجع لها عبد الرحمن الرافعي من رواية أهل المنطقة وتاريخها ومكان وقوعها.

للتأكد وقد شيع الأهالي جنازة الفتى الشهيد في اليوم التالي يوم ٦ إبريل في موكب ضخم تحرك من الصليبة الطولونية إلى مدافن الإمام الشافعي، وفي نفس يوم الجنازة أصدرت السلطات البريطانية بلاغًا عسكريًا أشارت فيه إلى مقتل الصبي فقالت:

إن جمهورًا معاديًا هجم صباح أمس على دورية في حي السيدة زينب؛ فاضطرت إلى إطلاق النيران وقد قتل لسوء الحظ ولد في العاشرة أو الثانية عشرة من عمره كان بين الجماهير».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧- فتحي رضوان يكتب «في بيتنا زعيمة»

لم تكن مظاهرة ١٦ مارس التي قادتها هدى شعراوي وشاركت فيها زوجات السياسيين الشكل الوحيد للمشاركة النسائية فى ثورة ١٩١٩؛ فقد شاركت في المظاهرات بل في العمل السري لتنظيمات الوفد نساء وفتيات من مختلف الطبقات. وهذه حكاية واحدة من الفتيات المصريات اللاتي شاركن في الثورة يرويها شقيقها الأصغر فتحي رضوان.

لعب فتحي رضوان دورًا بارزا في النضال الوطني والديمقراطي في مصر القرن العشرين وعندما قامت ثورة ١٩١٩ كان صبيًا صغيرًا، لكنه كتب عن الثورة في الجزء الثاني من سيرته الذاتية الذي يحمل عنوان «الخليج العاشق». كتب عن الثورة من خلال حديثه عن أخواته الثلاث وعلاقته بهن في مرحلة الطفولة وما كتبه فتحي رضوان يمثل شهادة حية عن دور الطالبات الصغيرات الثورة، يقول عن شقيقته الوسطى:

«أما أختي الوسطى فقد كانت رائدة السياسة في عائلتنا؛ فقد كانت تلميذة في المدرسة السنية وكانت هذه المدرسة في فترة اندلاع ثورة ١٩١٩، هي كبرى مدارس البنات الحكومية، وقد كانت أختي أولى بنات فصلها، فلما قامت الثورة، كبر عليها أن يكون دور زعيمة المدارس، دور المتفرج بحجة أنها مدرسة بنات فوقفت بين زميلاتها وخطبت فيهن خطبة تدعو إلى الجهاد، وكانت تحفظ من شعر حافظ إبراهيم الوطني، ومن الأناشيد، ما ضمنته خطبتها، فإذا بها تبرز بين زميلاتها خطيبة لا يشق لها غبار ونجحت دعوتها، واقتحمت الفتيات وراء زعيمتهن باب المدرسة وأزحن من طريقهن الناظرة الإنجليزية الحازمة مس كارتر، وانطلقن إلى الطريق العام يهتفن بالعربية والإنجليزية معا لمصر وللاستقلال التام وبسقوط الاحتلال والإنجليز.

كيف فعلت هذه الزعيمة التي لم تر مظاهرة، ولم تر خطيبًا ولا خطيبة؟ وكيف أطاعتها جموع تلميذات المدرسة؟ وكيف لم تخش هذه الجموع الناظرة التي كان كلامها قانونًا، وصوتها مرهوبًا، وشخصها مخوفًا؟

أكثر إن ذلك كله وحي الفطرة الإنسانية. وحي الفطرة الإنسانية السليمة بلا شك. وطردت أختي الزعيمة من المدرسة، فبقيت أياما في المنزل، ننظر إليها وتنظر إليها زميلاتها وجيراننا باعتبارها شخصية سياسية، تستحق الإعجاب، وتشبه في محيط الأسرة - الزعماء الذين نفوا إلى مالطة في محيط الأمة. ولكن الإنجليز قوم مرنوا على ملاينة الشعوب حين تثور، لا ليعطوا الشعوب ما تطلب؛ بل ليستديروا حول الحركة الوطنية الثائرة الهائجة بحثا عن نقطة ضعف فيها، فينفذوا إلى صميمها ويضربوا الثوار بعضهم ببعض، وفي الحركات التي تقوم في البلاد التي طال عهدها بالاحتلال يجرف التيار الوطني العنيف المتدفق في وجهه بعض الذين لا يؤمنون بالحركات الوطنية، ويحسبونها جنونًا مدمرًا، واندفاعًا وخيم العواقب، وهؤلاء يستجيبون لمغريات المحتلين، ولا يلبثون حتى ينقلبوا على الحركة؛ فتقع في صفوفها الفرقة. وجريًا على هذا الأسلوب عفت السلطة عن الطلاب والطالبات الثائرين والثائرات وأعادوهم إلى المدارس مقابل وعد شفوي من ولى الأمر ومن التلميذ بألا يشارك في الاضطرابات مرة أخرى، وقد عادت أختي كغيرها، ولكن المظاهرات اجتاحت مصر مرة أخرى ولم تستطع أختي الزعيمة أن ترى أمواج البحر تدعوها إلى إلقاء نفسها في عبابه، ثم تمنع نفسها من تلبية الدعوة، فما لبثت أن رأت نفسها على رأس تلميذات المدرسة، وإذا

بالشعر يتدفق على لسانها، وإذا هي خطيبة تثير الحماسة، ثم تندفع إلى باب المدرسة العتيق الثقيل فيفتح وتجري ناظرة المدرسة وراءها وتمسك بثوبها من أعلاه عند ظهرها، وتقول لها بالإنجليزية: تذكري وعدك» فترد عليها أختي وهي في درجات الحماسة وطني قبل وعدي وتتلقف البنات هذه الكلمة وكأنها قول مأثور فيصحن: وطني قبل وعدي وربما أفاءت عليهن اللحظة وحيها فقلن: لا وعد لمن لا عهد له... لا عهد مع أعداء الوطن. وعادت أختي مرة أخرى إلى البيت وقد زاد قدرها كزعيمة».

إنها حكاية من آلاف الحكايات عن الثورة والثوار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع: ثورة ١٩١٩ والإبداع

كانت ثورة ١٩١٩ علامة فارقة في التاريخ المصري الحديث؛ فمصر قبل الثورة غيرها بعدها ليس فقط على المستوى السياسي، بل في كل جوانب الحياة؛ لقد كانت الثورة الحدث الإيجابي في القرن العشرين.

لا يختلف مجال الإبداع الفني والأدبي عن غيره من المجالات التي تفاعلت مع الثورة، عبرت عنها وتأثرت بها؛ فبقدر ما ساهمت الأعمال الإبداعية في الحشد للثورة والتعبير عنها وإيصال رسالتها للجماهير، أو اتخذتها موضوعًا لها في السنوات التالية، بقدر ما كانت التغيرات المجتمعية التي أحدثتها الثورة في مصر دافعا لتطور الإبداع الأدبي والفني.

وقد اختلف التفاعل بين الفن والثورة من نوع فني أو أدبي إلى نوع آخر، فبينما كان تعبير بعض الأنواع عن الثورة ابن اللحظة التاريخية للثورة وحاشدًا للجماهير حولها ووسيلة من وسائل حمل أهداف الثورة إلى الناس، أي أداة أدوات الدعاية الثورية مثلها في ذلك مثل منشورات الثورة، كانت أنواع أخرى موثقة للثورة ومسجلة لها من خلال استخدام حدث الثورة ء الأدبي أو الفني،: موضوعًا للإبداع بعد انتهاء الحدث.

وإذا كانت فنون الشعر والموسيقى والغناء قد واكبت الثورة وعبرت عنها، وكانت أداة للتحريض الثوري في صفوف الجماهير، فإن الأعمال الروائية المهمة التي اتخذت ثورة ١٩١٩ موضوعًا لها كانت في معظمها بعيدة زمنيًا عن الحدث، ولعل أجلى التعبيرات الأدبية عن الثورة في مجال الرواية جاءت من خلال «عودة الروح» للحكيم وقنطرة الذي كفر» لمشرفة والجزء الأول من ثلاثية محفوظ بين القصرين»، هناك كذلك نص مسرحي بعنوان سنة ١٩١٩ الموقعة باسم فلبس والتي أعيد اكتشافها ونشرها مؤخرًا، وقد نشرت طبعتها الأولى بعد عام ١٩٣٨؛ وظلت ثورة ١٩١٩ حدثًا يظهر في الأعمال الروائية والمسرحية حتى وقتنا هذا على الرغم من مرور مائة عام عليها.

أما الفن التشكيلي الذي كانت أجلى تعبيراته عن الثورة تمثال نهضة مصر لمختار فقد جمع بين الخاصيتين؛ ففكرة التمثال كانت وليدة اللحظة الثورية وتعبيرا عنها، لكن تنفيذ العمل الذي استغرق ثماني سنوات حتى يستوي كتمثال ميدان في باب الحديد، جعل منه تخليدا لها عبر الزمن، كذلك كان تمثالا سعد زغلول في القاهرة والإسكندرية لمختار توثيقا لحدث الثورة بعد سنوات على وقوعها.

عدد من لقد واكب الثورة جيل من المبدعين ولد معظمهم في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين، في تلك الفترة المليئة بالتحولات التي عاشت فيها مصر بين مد وجزر بين نهوض وإخفاق، بين أحلام بناء مصر للمصريين وواقع سقوطها في قبضة الاحتلال، نشأ معظمهم في الريف ثم انتقلوا إلى المدينة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين.

وقد تميز أبناء ذلك الجيل بأنهم نبغوا في مرحلة الشباب المبكر، فأغلبهم قدم العقد الثالث من عمره، كما أنهم عرفوا كيف يتمردون إنجازًا مهما وهو بعد في حسين وهيكل على الثوابت ويتجاوزون الواقع متطلعين إلى المستقبل؛ فكانوا بذلك بناة نهضة حقيقية، ثم جاءت ثورة ١٩١٩ لتطلق أقصى طاقاتهم الإبداعية؛ حيث ارتبطوا بالثورة وبالحركة الوطنية المصرية وأصبحوا لسان

حالها في الفن والأدب والثقافة، لقد حولتهم الثورة التي اندمجوا في مسيرتها إلى شموس في سماء الوطن.

ولو نظرنا إلى جميع رواد النهضة والتحديث من أمثال طه والعقاد وتوفيق الحكيم ومختار والسيد درويش، فسنجد أن كلا متمردا على الأشكال التقليدية في النوع الفني أو في المجال الإبداعي الذي برع فيه كما أنه كان متمردًا أيضًا على قيم وتقاليد وثوابت المجتمع التي كانت تحتاج إلى تغيير.

كان طه حسين متمردا بطرحه منهج الشك في كتاباته، وكان العقاد متمردًا في السياسة ومتمردا في بدايته في الشعر وفي النقد الأدبي. وكان هيكل متمردًا عندما كتب رواية «زينب». وكان السيد درويش متمردا في ألحانه وأغنياته على الغناء والموسيقى بصورتيهما التقليديتين اللتين عرفتهما مجتمعاتنا. وكان مختار وراغب عياد وجيلهما من الفنانين التشكيليين متمردين على تقاليد المجتمع المتحفظة، وعلى الأشكال الفنية السائدة عندما جعلوا من الإنسان المصري رمزًا فى العمل الفني وموضوعًا له، وغيرهم كثيرون من أبناء جيل النهضة والتحديث في مطلع القرن العشرين الذين ارتبطوا بشكل أساسي بالثورة المصرية؛ ثورة ١٩١٩.

لقد تولدت لدى نخبة هذا الجيل المثقفة روح التمرد والثورة والرغبة في التغيير بفضل الظروف التي صاحبت مولدهم وتنشئتهم؛ فالتحموا بالثورة وعبروا عنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١- السيد درويش ثورة اللحن ولحن الثورة

«عندما ولد السيد درويش كانت الموسيقى المصرية والغناء فنا للخاصة، وعندما مات كانت موسيقاه وألحانه تتردد في أنحاء البلاد ملكا للعامة من أبناء الشعب كله... وعندما بدأ السيد درويش حياته الفنية كانت الموسيقى المصرية الغنائية لا تعرف غير الشجن والوجد والهيام وعندما انتهت حياته كانت الموسيقى تغني للوطنية، وتعبر عن طوائف العمال، وتوحي بجو الريف وتسخر من الحكام الطغاة. بهذه الكلمات البليغة لخصت أستاذة الموسيقى الراحلة الدكتورة سمحة الخولي إنجاز السيد درويش ومسيرته الإبداعية في مقال لها بعنوان: «وقفة تأمل في ذكرى السيد «درويش» نشرته جريدة الجمهورية في مارس ١٩٦٨ بمناسبة الذكرى السادسة والسبعين لميلاده.

وتشرح الدكتورة سمحة الخولي بالتفصيل دور السيد درويش في الموسيقى والغناء في مصر فتقول: «**ولد السيد درويش في عصر لا يعرف في الموسيقى غير المغني الفرد؛ فيمجده ويقدسه ويخضع له الموسيقى، كما يخضع له البطانة الصغيرة التابعة له وعندما مات كان قد أصل غناء الثنائيات بأسلوب الحوار الغنائي، بل طرق مجالًا أكثر صعوبة هو مجال الغناء الكورالي المتعدد الألحان وقد توصل إلى هذا الغناء الكورالي بفطرته دون تعليم خاص في هذا المجال بالذات... إن السيد درويش ولد في عصر كان فيه الغناء فنا أرستقراطيا منعزلا عن الغناء الشعبي يستعلي عليه ويرفضه ومات السيد درويش بعد أن حقق امتزاجًا خصبًا بين الموسيقى الفنية والشعبية قرب بين فن الخاصة والعامة، ورفع صوت طوائف الشعب في الموسيقى**».

ولا يقتصر التقييم الإيجابي لدور السيد درويش في الموسيقى والغناء في مصر على ما نردده نحن المصريين فقط فها هو المستشرق إدوارد لويس في دراسة عن سيد درويش يضمها كتاب السيد درويش حياة نغم» من إعداد محمد علي حماد، والذي صدر في عام ١٩٧٠، يقول: «إن الشيخ السيد درويش بنبوغه وثقته بنفسه يعتبر مرحلة في هذا الانقلاب الهائل الشاق الذي يتمثل في النهضة العلمية للشعب المصري، فقد نفخ في موسيقى بلاده روحًا جديدة كل الجدة، واستطاع أن يرتفع بها إلى مستوى يتمكن المرء معه أن يعبر عن عواطفه ونزعاته بواسطتها.» ولد السيد درويش بالإسكندرية في شهر مارس عام ١٨٩٢ بحي كوم الدكة ونشأ في بيئة شعبية بسيطة، والتحق مثل غيره من أبناء جيله بكتاب الحي، وفي الكتاب: كتاب حسن حلاوة، لمس مدرسه سامي أفندي الذي كان يُحفظ الأناشيد ويُلقنها للصغار استعداد الصبي السيد درويش البحر لاستيعاب الأغاني والألحان بسرعة. وعندما التحق بمدرسة «شمس المدارس» بحي رأس التين التقى بنجيب أفندي فهمي ضابط المدرسة الذي كان مولعا هو الآخر بتلقين تلاميذه الأناشيد التي كانت تعرف في ذلك الوقت بالسلامات، وتفتتح بها الحفلات المدرسية. وفي عام ١٩٠٥ عندما بلغ الفتى الثالثة عشرة من عمره تقدم بطلب للالتحاق بالمعهد الديني بمسجد المرسي أبو العباس، وواصل السيد درويش الدراسة بالمعهد الديني لمدة عامين تعلم خلالهما تجويد القرآن ودرس بعض علوم الدين، وارتدى الزي التقليدي للمشايخ الأزهريين وطلبة المعاهد الدينية، لكن روح الفنان داخل السيد درويش كانت غالبة، فانصرف تدريجيًا عن الدراسة وتردد على الموالد للإنشاد فيها، ومنها إلى الحفلات والأفراح، وأدى عدم تفرغه للدراسة وتردده الدائم على مجالس السمر في حي كوم الدكة الذي ولد ونشأ فيه إلى فصله نهائيا من المعهد الديني في نهاية عامه الدراسي الثاني به بعد إنذاره أكثر من مرة، ليخسر بذلك الفتى

السيد درويش البحر ابن الخمسة عشر عامًا «مستقبله» الدراسي كما كان يراه معظم أهل عصره من أبناء الطبقات الشعبية، ولتكسب مصر علما أعلام نهضتها الحديثة فنان الشعب السيد درويش.

C من لقد امتلك السيد درويش إحساسًا واعيًا بروح الشعب المصري، وعبر عن هموم البسطاء ومشاعرهم، وتوج حياته بالالتحام بثورة سنة ١٩١٩ وأصبح المعبر عنها وعن قيمها بالكلمة واللحن،والأغنية وربما كان السيد درويش ومختار من بين أبناء جيلهما، كما قال الناقد الراحل بدر الدين أبو غازي في محاضرة له عن السيد درويش ومختار ألقاها في أتيليه القاهرة بمناسبة الذكرى التسعين لميلاد السيد درويش سنة ١٩٨٢: «هما الأكثر تعبيرا في مجال الفنون عن الثورة المصرية وقيمها والأبلغ في التعبير عن أبناء الشعب البسطاء صانعي الحضارة من فلاحين وحرفيين وعمال، والأقدر على استلهام أعمالهما من روح هذا الشعب،وتراثه وعلى حل إشكالية الأصالة والمعاصرة».

لقد نجح السيد درويش في حياته القصيرة وحياته الفنية الأقصر أن يجسد الشعب المصري من خلال أغانيه، ونجح في أن يعبر عن المبادئ التي تكونت خلال نضال المصريين منذ أواخر القرن الثامن عشر وتبلورت في أجلى صورها مع ثورة،١٩ مبادئ الاستقلال الوطني والديمقراطية وبناء الدولة المدنية التي تقوم على أسس المواطنة، وحول هذه المبادئ إلى كلمات يتغنى بها الناس، ففي نشيد «فليعش وطننا» القريب جدا في كلماته ولحنه من نشيد مصر الذي أعده لاستقبال سعد، وكان قد كتبه ولحنه ليكون ضمن ألحان رواية كليوباترا ومارك أنطونيو إلا أن منيرة المهدية حذفته، يقول في مطلعه:

فليعش وطننا وحدته أملنا كلنا جميعًا للوطن ضحية
نجمع صليبنا ويا هلالنا في حبك أنت يا حرية

وفي لحن الكشافة المعروف بـ «قوم يا مصري» ينشد:

حب جارك قبل ما تحب الوجود
إيه نصارى ومسلمين قال إيه ويهود
دي العبارة نسل واحد م الجدود

وفي النشيد الوطني والذي أخذت عبارته الأولى من النشيد الخديوي الذي يعود إلى عصر إسماعيل تقول كلمات المقطع الأخير:

فلينزل غضب الشعب على من يتصدى للوطنية
وتحيا مصر الاستقلال وتحيا فيها القومية

لقد رحل السيد درويش وهو بعد شاب تجاوز الحادية والثلاثين من عمره بأشهر قلائل، فقد تُوفي في شهر سبتمبر عام ١٩٢٣، وهو في قمة مجده الفني وتوهجه الإبداعي؛ تُوفي وهو يستعد لاستقبال الزعيم سعد زغلول يوم عودته من المنفى بالنشيد الذي ألفه ولحنه خصيصًا لهذه المناسبة وقال في مطلعه:

مصرنا وطننا سعدها أملنا كلنا جميعًا للوطن ضحية
أجمعت قلوبنا هلالنا وصليبنا أن تعيش مصر عيشة هنية

وختمه بقوله:

إحنا غايتنا نرفع رايتنا
أحرار خلقنا نأبـــي المذلـــة
يا عيشنا سُعدا يا متنا شهدا

لنحيا أمة مستقلة

وكانت قد أقيمت حفلة لتكريم الزعيم سعد زغلول بمناسبة عودته من منفاه يوم ١٧ سبتمبر عام ١٩٢٣ في الساعة الخامسة مساء بفندق سافوي بالإسكندرية، اشترك فيها الخطباء والشعراء من كل الطبقات بالقاهرة، وكان أبلغ ما قيل وما سمع في الترحيب بالزعيم سعد زغلول الأناشيد التي أعدها السيد درويش تكريمًا لعودة الزعيم من منفاه، ولكن شاء القدر ألا هذه الأناشيد إلا بعد رحيل الفنان بأيام معدودات؛ فعندما انتهى الحفل طلب سعد زغلول أن يشكر السيد درويش ويهنئه على اللحنين، ولكن السيد درويش كان قد توفي قبلها بأسبوع «فترحم الجميع على فنان الشعب الخالد»، وما زلنا نترحم عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢- مختار ابن الثورة ومخلدها

كانت للفنون الجميلة مكانتها الخاصة والمتميزة في الحياة المصرية منذ أقدم العصور، فمعارفنا الأساسية عن الحضارة المصرية القديمة وصلتنا من خلال الإبداعات الفنية للإنسان المصري؛ تلك الإبداعات التي صورت لنا حياته ومعتقداته وثقافته وفكره، ولم تتوقف هذه الإبداعات عبر العصور، وعلى الرغم من مرور لحظات من الظلام والإعتام تراجع فيها الإبداع الفني في مصر، فإن الروح المبدعة تظل حية كامنة يعبر عنها الإنسان المصري من خلال فنونه الشعبية.

وفي مطلع القرن الماضي، ومع بوادر حلقة جديدة من حلقات نهضة مصر الحديثة، بدأ اهتمام قادة الفكر والرأي في مصر بتشييد المؤسسات الحديثة للتعليم وإحياء ما قتله الاحتلال البريطاني منها؛ فتعالت الدعوة إلى إنشاء المدارس وتأسيس الجامعة الأهلية، وتضافرت جهود المصريين من أجل خروج هذه المشروعات إلى النور فوقف إلى جانب الدعوة قادة الأحزاب الرئيسة: الحزب الوطني وحزب الأمة وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية، جنبا إلى جنب مع بعض قادة الفكر النابهين وعددٍ من أفراد الأسرة أفراد الأسرة الحاكمة. وفي هذا السياق قام الأمير يوسف كمال بإنشاء أول مدرسة للفنون الجميلة سنة،١٩٠٨، وخرجت المدرسة دفعتها الأولى سنة ١٩١١، وأوفد الأمير واحدًا من هؤلاء الخريجين إلى باريس لاستكمال دراسته؛ إنه مختار.

وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩ لم يكن مختار قد أكمل عامه الثامن والعشرين كان لا يزال في باريس، وهناك شارك مع الطلاب المصريين في تكوين حركة لدعم الثورة المصرية والدعاية لها عرفت باسم «الجمعية المصرية». وبعد سفر الوفد المصري إلى باريس برئاسة سعد زغلول تحولت تلك الحركة إلى جماعة لمساندة الوفد ومساعدته في الدعاية للقضية المصرية، وقد انسحب مختار من الجمعية المصرية كما تكشف رسالة شخصية وجهها لصديقه وزوج شقيقته محمود أبو غازي في نوفمبر سنة ١٩٢٠، يفسر فيها انسحابه من الجمعية بأن هناك يدًا أخرى بتشتغل فيها»، لكنه لم ينسحب من مساندة الثورة والتعبير عنها.

لقد انفعل مختار مثل كل المصريين بالثورة، وأحداثها، وقرر أن تكون مساهمته فيها من خلال فنه، فنحت تمثالًا يعبر عن الثورة التي اعتبرها نهضة للشعب المصري، وقدَم هذا التمثال إلى معرض الفنون الجميلة في باريس فحصل على شهادة تقدير.

ولفكرة التمثال قصة فعندما انفعل مختار بأحداث ثورة ١٩١٩ نحت تمثالًا يعبر عن هذه الثورة على غرار النحاتين الأوروبيين الذين جسدوا الثورات والأحداث الكبرى في التاريخ الأوروبي، فجاء التمثال على هيئة رجل متوثب عقالًا يرتدي ويستل سيفه من غمده لكن مختارًا تراجع عن الفكرة وحطم التمثال ولم يتبق منه سوى صورة فوتوغرافية نشرها الناقد جبرائيل بقطر لأول مرة في الذكرى العاشرة لرحيل مختار.

ونحت مختار بعدها رمز النهضة الذي نراه إلى اليوم شامخًا في مدخل الطريق المؤدي إلى جامعة القاهرة، لقد سمَى مختار تمثاله «نهضة مصر»؛ لأنه رأى أن الثورة كانت التعبير الحي عن روح النهضة الشاملة والبعث الوطني، فجاء التمثال على هيئة فلاحة مصرية تستنهض أبا الهول» من سُباته العميق ليربط بذلك بين نهضتنا المعاصرة وتراثنا المصري القديم.

وكان إنجاز مختار للتمثال مواكبًا لسفر الوفد المصري لعرض قضية البلاد في باريس ولندن والدعوة لاستقلال مصر، فتعرف أعضاء الوفد على مختار وشاهدوا التمثال قبل عرضه على الجمهور.

وقد أعجب الزعيم سعد زغلول بالتمثال، وعبر عن إعجابه هذا في رسالة بخط يده بعث بها إلى مختار أشاد فيها بالعمل وبالمعنى الرمزي الذي يحمله، فقال سعد في رسالته:

«حضرة المصور الماهر مختار..

شاهدت التمثال الذي رمزت به لنهضة مصر فوجدته أبلغ للحقيقة، رمز وأنهض حجة على صحتها، فأهنئك على هذا الخيال الواسع وهذا الذوق السليم وهذا الفن الساحر، وأهنئ مصر بأنك من أبنائها العاملين على إعادة مجدها، وأرجو الله أن يعين هذه النهضة حتى تبلغ كمالها فتشفع تمثال النهضة بتمثال الاستقلال والسلام.

سعد زغلول

باريز ٦ مايو سنة ١٩٢٠»

لقد كانت لعرض التمثال في فرنسا أصداء في الصحافة الفنية الأوروبية؛ فتوالت مقالات الإشادة بالعمل الفني الجديد خاصة أنه أول تمثال صرحي لنحات مصري يراه العالم بعد تماثيل قدماء المصريين.

أما في مصر فقد عرف الناس التمثال من خلال أربعة مقالات كتبها مجد الدين حفنى ناصف في جريدة «الاخبار» التي كان يصدرها أمين الرافعي، واتخذ لها عنوانًا واحدًا النهضة الفنية في مصر». وفي أعقاب هذه المقالات الأربعة أرسل الدكتور حافظ عفيفي، وكان من ضمن أعضاء الوفد المصري، برسالة إلى أمين الرافعي رئيس تحرير الأخبار يقترح فيها أن تتبنى الجريدة الدعوة لاكتتاب عام لإقامة تمثال النهضة في أحد ميادين العاصمة. وتلقف الرافعي الفكرة وتبنى الدعوة لها، فنشر في اليوم التالي بجريدة «الأخبار» نداء لاكتتاب قومي عام تحت عنوان «نهضة مصر دعوة إلى الأمة المصرية»، وساند فكرة الاكتتاب اثنان من أعضاء الوفد المصري: هما ويصا واصف وواصف غالي الأول مقالًا بعنوان محمود مختار والنهضة الفنية في مصر»، ونشر الثاني فنشر مقالا تحت عنوان «واجبنا نحو مختار».

وتلقت الأمة الدعوة فتوالت التبرعات على جريدة «الأخبار» من كل أنحاء مصر... مدنها وقراها... قروشًا وملاليم قليلة لكنها تعبر عن يقظة الروح المصرية، وكانت حركة الاكتتاب لإقامة التمثال حالة حشد للجماهير خلف الثورة وأهدافها تماما مثلما كانت حركة جمع التوقيعات على توكيل الوفد لتمثيل الأمة منذ انطلاقها عقب مقابلة ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ الشهيرة حرثا للأرض وحشدًا للشعب على طريق الثورة. ومن بين الرسائل التي بعث بها المكتتبون مع قروشهم القليلة، اخترت رسالة الأمة، تقول لعامل اسمه الشحات إبراهيم الكيلاني كان فاعلا بهندسة السكة الحديد بالزقازيق، تكشف رسالته عن الروح الجديدة التي سرت في جسد الرسالة التي نشرتها الأخبار:

«إنني رجل فقير جدًا، أشتغل بهندسة السكة الحديد الأميرية بوظيفة فاعل، ويوميتي ٧٠ مليمًا، ومتزوج بيتيمة الأب، وأم زوجتي تبيع ترمسًا، ولي شغف بقراءة الصحف من عهد النهضة المصرية الأخيرة. بينما كنت جالسًا أقرأ جريدتكم الغراء بكيت بكاء شديدًا، فسألتني زوجتي عن سبب بكائي فأخبرتها عن التبرع لتمثال نهضة مصر، ولم يكن معي نقود أتبرع بها خلاف ٢٠٠ مليم فقالت زوجتي إنها تتبرع بمائة مليم أيضًا، وقالت أمها مثلها، وكذلك فعل أخوها وعمره ١٥

سنة. أما أختها من العمر ١٣ سنة فقالت إنها لا تملك إلا ٥٠ مليما فتبرعت بها ولي طفل عمره سنة ونصف كانت أمه وفرت له ٥٠ مليما فأحضرتهم، أصبح المجموع ٦٠٠ مليم، فأرجوكم أن تتقبلوا منا هذا المبلغ القليل لتوصيله إلى أمين صندوق تمثال نهضة مصر، وتتوسطوا في قبوله ونكون لكم من الشاكرين. هذا وإني أدعو جميع الفعلة زملائي في الزقازيق وخلافها، وأدعو أيضًا جميع العمال للتبرع لتمثال نهضة مصر لنتسابق أسيادنا الأغنياء زادهم الله البالغة مع من فضله».

ملاحظة بين قوسين (بعد سنوات قليلة يظهر اسم الشحات إبراهيم في الصحف مرة أخرى واحدًا من قادة الحزب الشيوعي المصري الذين اعتقلوا في أول قضية شيوعية في مصر سنة ١٩٢٤، بعد حركة إضرابات عمالية واسعة). الروح التي فجرتها ثورة ١٩١٩ في الشعب المصري فاستنهضت داخله أنبل وأقوى ما فيه. لقد اجتمع من الاكتتاب الشعبي مبلغ ٦٥٠٠ جنيه، وطلبت اللجنة المشكلة لتنفيذ التمثال من الحكومة الترخيص بإقامته في ميدان المحطة في مدخل العاصمة، ميدان رمسيس لقد كانت هذه هي حاليا.

فقرر مجلس الوزراء في ٢٥ يونية سنة ١٩٢١ الموافقة على ذلك، وأن يكون إنشاء القاعدة وإقامة التمثال تحت إشراف وزارة الأشغال، وأكملت الحكومة المبالغ المالية اللازمة لتنفيذ المشروع.

لقد كان تمثال النهضة تعبيرًا عن عصر جديد وروح جديدة في العمل الوطني وفي تطور الفن المصري. وعن التمثال يقول الناقد التشكيلي بدر الدين أبو غازي في كتابه «المثال مختار»:

تمثال نهضة مصر هو أول تمثال أقيم فى العصر الحديث، هو بدء عودة الحياة إلى الإزميل الذي هوى من يد آخر فنان فرعوني، وقد جاء تعبيرًا عن فكرة قومية ومعنى هز مشاعر الجموع، وبه بدأ الإحساس بالفن كضرورة قومية، وكان لظهور التمثال وإقامته من أحجار الجرانيت دلالات رمزية ردت إلى الناس الثقة وجعلته نشيدا من أناشيد الأمل في عصر النهضة. لقد سيطر تمثال نهضة مصر على حقبة من الحياة المصرية، كان الشعب يعتبر هذا التمثال تمثاله، وكان المفكرون يدركون دلالة إقامته وما يحمله من معنى انتصار فكرة الحرية وإرادة الشعب ومن هذه الاعتبارات استمد التمثال قيمته التاريخية فضلا عن قيمته الفنية.» كان اللقاء الثاني بين مختار وثورة ١٩١٩ بعد الثورة بثماني سنوات، وعلى وجه التحديد في عام ١٩٢٧ عقب وفاة سعد زغلول؛ حيث قررت الحكومة تخليد ذكراه، بإقامة ضريح له وتمثالين أحدهما بالقاهرة والثاني بالإسكندرية، ثم بعد ذلك تحويل بيت سعد بيت الأمة» بعد رحيل أم المصريين إلى متحف ومزار قومي. وقد تمَ تكليف مختار بإقامة التمثالين، وكانت لمختار مقولة شهيرة: إن في ذهن كل مصري تمثالًا لسعد زغلول». وبالفعل قام مختار بإنجاز ما كلف،به وما زال تمثالاه لسعد زغلول قائمين يشهدان على قدرة الفنان ومكانة الزعيم في آن واحد.

من خلال تمثالي سعد بالقاهرة والإسكندرية سجل مختار مجموعة من القيم والمفاهيم السياسية والوطنية، فلم يكن التمثالان مجرد تجسيد لشكل الزعيم وملامحه الشخصية، ولم يكونا مجرد تمثالي ميدان كغيرهما من التماثيل التي جملت ميادين القاهرة منذ القرن ١٩.

لقد كانت المرة الأولى التي يحول فيها فنان مصري تمثال الميدان الشخصي إلى عمل ملحمي يعبر عن ثورة شعب وطموحاته وأهدافه وأمانيه القومية؛ فقاعدة تمثال الإسكندرية قامت على مشاهد تسجيلية لأحداث ثورة ١٩١٩، ورمزين مجسمين للوجهين البحري والقبلي. وحين صور مختار العدالة والدستور والاستقلال على قاعدة تمثال القاهرة كان يسجل أهدافًا يسعى الشعب المصري إلى

تحقيقها من خلال نضاله الوطني. وحين صور أصحاب الحرف ومشاهد العمل في الريف وعلى صفحة النهر كان يخلد أبناء هذا الشعب الذين ثاروا سنة ١٩١٩ في نحت جداري ميداني لأول مرة. لقد كان بناء قاعدة تمثال سعد الجرانيتية في القاهرة تشكيلًا متكاملا مع تمثال الزعيم الذي يعلوها، إنها ليست مجرد قاعدة ترفع التمثال ولكنها تحمل إشارة واضحة إلى أن القاعدة بما فيها من بشر وقيم وأهداف هي التي رفعت الزعيم وحملته ليحتل مكانه البارز في وجدان وتاريخ الأمة.

فعاد مختار ابن ثورة ١٩١٩ الذي أعادت الثورة تشكيله ليشكل مرة أخرى ملحمة الشعب والثورة، ويخلد من خلال أعماله الميدانية الثلاثة ثورة ١٩١٩.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣- وعادت الروح

«إن هذا الشعب الذي تحسبه جاهلا ليعلم أشياء كثيرة. ولكنه يعلمها بقلبه لا بعقله إن الحكمة العليا في دمه ولا يعلم والقوة في نفسه ولا يعلم. هذا شعب قديم جئ بفلاح من هؤلاء وأخرج قلبه تجد فيه رواسب عشرة آلاف تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو سنة من وهو لا يدري.

نعم هو يجهل ذلك ولكن هناك لحظات حرجة تخرج فيها هذه المعرفة وهذه التجاريب فتسعفه لا يعلم من أين جاءته. هذا ما يفسر لنا تلك اللحظات من التاريخ التي نرى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة في قليل من الوقت.. وتأتي بأعمال عجاب في طرفة عين».

تحمل كلمات توفيق الحكيم في روايته عودة الروح» رؤيته لحال الشعب المصري، التي عبر عنها على لسان أحد شخوص روايته مسيو فوكيه عالم الآثار الفرنسي، في حواره مع مفتش الري الإنجليزي مستر بلاك، وكلمات الحكيم تعبر بصدق عن حال الشعب المصري قبيل الثورة؛ فلم يكن الإنجليز يتصورون عندما منعوا سفر الوفد المصري لعرض قضية البلاد على مؤتمر الصلح، ولا عندما رفضوا سفر رئيس الحكومة رشدي باشا إلى لندن للتفاوض، لم يكونوا يتصورون أن الشعب يمكن أن يثور كانوا مغرورين بقوتهم العسكرية وبأحكامهم العرفية التي توهموا أنها ستمنع الشعب من الحركة إذا أراد. لقد خدعهم موقف الشعب المصري في أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان الإنجليز يخشون عندما أعلنوا حمايتهم على مصر وعزلوا عباسًا أن يثور المصريون، لكنهم لم يفعلوا. كان الإنجليز يخشون عندما دارت المعارك مع الأتراك على جبهة سيناء أن تنفجر مصر من الداخل وتهب لتساند،تركيا، لكنها لم تفعل. اعتقد الإنجليز أن المصريين أضعف أن يثوروا وظنوا أن روح المقاومة قد ماتت فيهم. لم يدرك الإنجليز أن استبدال عباس حلمي بحسين كامل لا يشغل بال المصريين ولا يهتمون له، ولم يفطنوا إلى أن الدولة العثمانية لا تعني للمصريين شيئًا كثيرًا، وأنها لا تستحق أن يثوروا لأجلها. إن هذه الأمور لم تكن تشغل بال المصريين باستثناء قلة محدودة من النخبة السياسية والفكرية المصرية المعزولة عن الشعب المصري وهمومه الفعلية.

من يوم لم منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ فكان أمرًا مختلفًا، أما ما حدث في مصر يشعر الإنجليز ورجالهم في مصر وأعوانهم من المصريين بهذه الروح الجديدة؛ فتمادوا في غَيْهم، وزادوا في تعنتهم، وفي المقابل كانت روح المقاومة تسري بسرعة في النسيج المصري، وقيادة الوفد بزعامة سعد زغلول تزداد إصرارًا على المواجهة وتصعد من مواقفها طوال شهر فبراير سنة ١٩١٩.

نشر توفيق الحكيم روايته عودة الروح سنة ١٩٣٣ في ظل الانقلاب الدستوري الأسوأ في تاريخ مصر في الحقبة الليبرالية، وعلى الرغم من أن العمل الروائي من عنوانه حتى آخر صفحة فيه يضع نصب عينيه ثورة ١٩١٩، وقضية نضال الشعب المصري، فإن حدث الثورة لا يظهر إلا في الصفحات الأخيرة من الرواية؛ ليؤكد من خلاله الحكيم على فكرته خلاله الحكيم على فكرته عن هذا الشعب الذي يبدو ساكنا لكنه يهب مرة واحدة من سكونه محملًا بتراث حضارته الضاربة في أعماق التاريخ الفكرة التي صاغها على لسان أحد شخوص روايته، عالم الآثار الفرنسي.

C مقتطف من الفصل الثالث والأربعين من عودة الروح «لقد صدق نظر الأثري الفرنسي:

«بلد أنت في فجر الإنسانية بمعجزة الأهرام لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى... أو معجزات! بلد يزعمون أنها ميتة منذ قرون ولا يرون قلبها العظيم بارزا نحو السماء الأبد..!» من بين رمال

الجيزة! لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش لعل هذا الأثري الذي يحيا في الماضي كان يرى مستقبل مصر أكثر من أي إنسان.

في شهر مارس مبدأ الربيع... فصل الخلق والبعث والحياة الأشجار بورق جديد وحبلت وحملت أغصانها الأثمار.... اخضرت وكذلك مصر أيضا... قد حبلت وحملت في بطنها مولودًا هائلا... وها هي مصر التي نامت قرونا تنهض على أقدامها في يوم واحد. إنها كانت تنتظر. كما قال الفرنسي - تنتظر ابنها المعبود رمز آلامها وآمالها المدفونة يبعث من جديد... وبعث هذا المعبود من صلب الفلاح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان محسن في صباح اليوم المشهود في فصله. وإذا أحد التلاميذ قد أقبل وهو يلهث وكلما صادف في طريقه فئة لفظ بضع كلمات سريعة بلهجة خطيرة فتتغير وجوه السامعين.. حتى بلغ الخبر مسامع محسن وما كاد يفكر فيه وفي معناه حتى ألفي المدرسة بأجمعها حوله تتهامس وتتناقش وتتساءل. ودق جرس الدخول فلم يأبه له أحد أمر عجيب إذ ذاك في تاريخ المدرسة.. أن يحتشد الطلبة هكذا وفي ملامحهم معنى واحد هائل ويدعون إلى الدرس فلا يجيبون..

كأنما هو يوم القيامة.

كان الجميع يتحدثون عن رجل لم يسمع به محسن من قبل... ولكنه أحس في لحظة أن حياته يجب أن تعطى لهذا الرجل. وإذا الحماسة تبلغ به إلى حد الهتاف في رفاقه التلاميذ أن اتركوا المدرسة واخرجوا لملاقاة زملائكم طلبة المدارس الأخرى.. فإن الأمر أجل من أن نشتغل بغيره الساعة. ولعل هذا كان نفس إحساس رفاقه. فإذا الجميع يُهرعون إلى باب المدرسة. ولم تمض دقائق معدودة حتى كانت المدرسة بأجمعها سائرة في الطريق.

وخطر لمحسن أن يذهبوا لملاقاة مدرسة الهندسة حتى يجتمع بعبده، ولأن هذه المدرسة قريبة منهم إلا أنهم ما كادوا يسيرون قليلا حتى لمحوا حشدًا من الطلبة مقبلا عليهم فتبينوه فإذا هم طلبة الهندسة خرجوا أيضًا وإذا محسن يرى على رأسهم عمه عبده يلوح بذراعيه ويهتف صائحًا وقد لدهشته عظيم.

الأخرى.

احمر وجهه وقطب حاجبيه وفي رنين صوته ما يدل على هياج عصبي وانضمت المدرستان إحداهما إلى الأخرى وسار الكل لملاقاة المدارس واقترب محسن من عبده ووضع ذراعه تحت إبطه وسارا معا يهتفان.. وبين الضجيج والأصوات الراعدة كان عبده يسأل محسن: - خرجتم ازاي؟!

فيجيبه محسن بكل بساطة:

- زي ما خرجتم أنتم.

ولعل هذا السؤال وذاك الجواب تبودلا مرارًا عدة بين جميع الطلبة وجميع المدارس... وبين كل طبقات الشعب... إن كل فئة وطائفة كانت تحسب نفسها البادئة بالقيام.. الشاعرة بالعاطفة الملتهبة الجديدة. ولم يفهم إذ ذاك أن هذه العاطفة انفجرت في قلوبهم جميعًا في لحظة واحدة كلهم أبناء مصر لهم قلب واحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما غابت شمس ذلك النهار حتى أمست عشر مليونًا من مصر من كتلة نار. وإذا أربعة الأنفس لا تفكر إلا في شيء واحد «الرجل الذي يعبر عن إحساسها.. والذي نهض يطالب بحقها فى الحرية

والحياة قد أخذ ونفي في جزيرة وسط البحار...».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وسجن أخذ وسجن كذلك أوزوريس الذي نزل يصلح أرض مصر ويعطيها الحياة والنور أخذ في صندوق ونفي مقطعًا إربا في أعماق البحار! وانقلبت القاهرة رأسًا على عقب فأغلقت الحوانيت والمقاهي والبيوت، وقطعت المواصلات وعمَت المظاهرات. وقام نفس الهياج في جميع أرجاء الأقاليم والأرياف. وأن الفلاحين لأشدُ من أهل المدن في إظهار احتجاجهم وغضبهم. فلقد قطعوا الخطوط الحديدية ليمنعوا وصول القطر المسلحة وأحرقوا دور البوليس...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصدقت كلمة الحكيم:

«احترس... احترسوا من هذا الشعب فهو يخفى قوة نفسية هائلة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤- نجيب محفوظ موثقا للثورة

في رواية «بين القصرين» أول أجزاء ثلاثية نجيب محفوظ تدور الأحداث في ظلال ثورة ١٩١٩، يتطور الحدث الروائي مواكبًا للثورة ومتفاعلا معها، في بعض صفحات الرواية يتحول نجيب محفوظ إلى موثق للثورة يضمن السرد الروائي وثائق الثورة بنصوصها الكاملة... السطور التالية من الرواية نموذج لهذا السرد التوثيقي: أعلنت إنجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية، فهي حماية باطلة لا وجود لها قانونًا بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها».

كان فهمي يملي الكلمات، كلمة كلمة، في أناة وبصوت واضح النبرات والأم وياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الإملاء الجديد الذي انكب كمال على كتابته، مركزا وعيه في ألفاظه من دون أن يفقه معنى كلمة مما كتب صوابًا أو خطأ. لم يكن غريبا أن يلقي فهمي على شقيقه الصغير درسًا في الإملاء أو غيرها في جلسة القهوة، ولكن موضوع الإملاء بدا جديدا أما وزينب، ياسين فنظر إلى أخيه مبتسما:

حتى للأم أرى هذه المعاني قد ملكت عليك نفسك.. فلم يفتح الله عليك بإملاء لهذا الغلام المسكين إلا خطبة سياسية وطنية ينفتح لها المغلق من أبواب السجون.

فبادر فهمي إلى تصحيح رأي أخيه قائلا:

- هي من خطبة سعد أمام سلاطين الاحتلال في جمعية الاقتصاد والتشريع.

- فتساءل ياسين باهتمام ودهشة وكيف كان ردهم عليه؟

فقال فهمي بانفعال:

- لم يجئ ردهم بعد، والكل يتساءل عنه في حيرة وقلق، إنها غضبة مزمجرة وجه أسد لم يؤثر عنه الحلم والعدل.

ثم وهو يتنهد مغيظًا محنقا - كان لا بد غضبة بعد أن من منع الوفد من السفر، وبعد أن استقال رشدي باشا من الوزارة فخيب السلطان المأمول بقبول استقالته.

ثم مضى إلى حجرته مسرعًا، وعاد وهو يبسط ورقة مطوية وقدمها إلى أخيه وهو يقول:

- ليست الخطبة كل ما عندي اقرأ هذا المنشور الذي يوزع سرا متضمنًا رسالة الوفد إلى السلطان.

فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ:

يا صاحب العظمة.

يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصري أن يرفعوا إلى عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلي: لما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادئ الحرية والعدل أساسًا للصلح، وأعلنوا أن الشعوب التي غيرت الحرب مركزها يؤخذ رأيها في حكم نفسها، أخذنا على عاتقنا السعي في استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها أمام مؤتمر السلام ما دام أن الحق الأقوى قد زال من ميدان السياسة، وما دامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركية حرة من كل حق عليها؛ لأن الحماية التي أعلنها الإنجليز بلا اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة، ولم تكن في الواقع إلا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب اعتمادًا على هذه الظروف، وعلى غرمت كل ما قدرت عليه من المغارم في صف القائلين بحق حرية

الأمم الصغرى لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريًا على المبادئ التي أسس عليها. عرضنا رغبتنا في السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدي باشا فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقًا منه بأننا إنما نعبر عن رأي الأمة كافة.. فلما لم يسمح لنا بالسفر وحبسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الأمة الأسيفة، ولما لم يستطع دولته أن يحتمل مسئولية البقاء في منصبه في حين أن الشعب يصادر في مشيئته، استقال هو وزميله صاحب المعالي عدلي يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما.

مصر في مص ولقد كان الناس يظنون أنه كان لهما فى وقفتهما الشريفة دفاعًا عن الحرية عضد قوي من نفحات عظمتكم، لذلك لم يكن ليتوقع أحد صر أن يكون آخر حل المسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين؛ لأن في ذلك متابعة للطامعين في إذلالنا وتمكينًا للعقبة التي ألقيت في سبيل الإدلاء بحجة الأمة إلى المؤتمر، وايذانا بالرضا بحكم الأجنبي علينا إلى الأبد.

قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذي خلا بانتقال أخيكم المغفور له السلطان حسين، ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرش في زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم، غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرا احترامهما لإرادة الأمة لا يمكن أن يتفق مع ما جبلتم عليه من حب الخير لبلادكم، والاعتداد بمشيئة شعبكم. لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف أنهم لم يلتفتوا إلى الأمة في هذا الظرف العصيب وهي إنما تطلب منكم - يا أرشد أبناء محررها الكبير محمد علي - أن تكونوا لها العون الأول على نيل استقلالها مهما كلفكم ذلك، فإن همتكم أرفع من أن تحددها الظروف. كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصري ذي كرامة وطنية أن يخلفه في مركزه؟! كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضي عليها بالفشل؟!

عفوا مولانا.. قد لا تكون مداخلتنا في هذا الأمر وفي غير هذا الظرف غير لائقة.. ولكن الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أي اعتبار غير منفعة الوطن الذي أنت خادمه الأمين إن لمولانا أكبر مقام في البلاد فعليه أكبر مسئولية عنها، وفيه أكبر رجاء لها، وإننا لا نكذبه النصيحة إذا تضرعنا إليه أن يتعرف رأي أمته قبل أن يتخذ قرارًا نهائيا فى أمر الأزمة الحالية، فإننا نؤكد لسدته العلية بين التي هي وبين أنه لم يبق أحد في رعاياه من أقصى البلاد إلا وهو يطلب الاستقلال، فالحيلولة الأمة طلبتها مسئولية لم يتحرَ مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة؛ لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أمته الآن أشد ما تكون رجاء في استقلالها وأخوف ما تكون من أن تلعب به أيدي حزب الاستعمار، والتي تطلب إليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها ويقف في صفها فتنال بذلك غرضها.. وأنه على ذلك قدير. رفع ياسين رأسه عن المنشور وفي عينه ذهول وفي قلبه نبض جديد من بيد أنه هز رأسه قائلا:

دو التأثير، - يا له من خطاب! لا أحسبني أستطيع أن أوجه مثله إلى ناظر مدرستي دون أن ينالني العقاب الرادع!

فرفع فهمي منكبيه استهانة وقال:

- الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أي اعتبار غير منفعة الوطن! ردد العبارة عن ظهر قلب كما وردت في المنشور، فلم يتمالك ياسين أن يقول ضاحكا:

- أحفظت المنشور! ولكني لا أعجب لهذا، كأنك كنت تترصد طول حياتك لمثل هذه الحركة كي تلقي إليها بكل قلبك ولعلي لا أخلو من مثل شعورك وآمالك، ولكني لا أقرك على الاحتفاظ بهذا المنشور.. خصوصًا بعد استقالة الوزارة وتحرش الأحكام العرفية!

فقال فهمي في فخار - إني لا أحتفظ بهذا فحسب، ولكني، ولكني أقوم بتوزيعها ما الجهد!

سمح لم تكن بين القصرين النص الوحيد الذي تطرق فيه محفوظ للثورة وقادتها؛ فقد كانت ثورة ١٩١٩ بقيامها حاضرة دومًا في إبداع نجيب محفوظ الذي عاش الثورة وهو طفل صغير عمره ٩ سنوات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مشهد ختامي ميلاد مصر جديدة

ما الذي نجحت ثورة ١٩١٩ في تحقيقه؟ أو بصيغة أخرى، هل نجحت الثورة في تحقيق أهدافها؟ هل غيَرت ثورة ١٩١٩ مصر إلى الأفضل؟

أسئلة ترددت كثيرًا منذ انتهاء المرحلة الأولى من الثورة، بدأت بسؤال: هل نجحت الثورة؟ وبمرور الزمن تولدت من السؤال أسئلة. واليوم ومع الاحتفال بالمئوية الأولى للثورة المصرية، لا بد أن تتجدد الأسئلة، وتتعدد الإجابات. كان السؤال: هل نجحت الثورة، أم فشلت؟ يتردد بقوة منذ الأشهر الأخيرة لعام ١٩١٩، تردد بين الساسة المصريين وبين الجماهير التي شاركت في الثورة، كانت الصورة الأولى للسؤال: هل كان هناك مقابل للتضحيات التي قدمها الشعب من شهداء وجرحى ومعتقلين ومحكوم عليهم بالإعدام والسجن والحبس والجلد والغرامة؟

ومن الإجابة عن السؤال تقتضي طرح سؤال آخر: ماذا كانت أهداف الثورة؟ لقد بدأت أحداث الثورة يوم ٩ مارس ١٩١٩ ردًا على نفي الزعماء؛ سعد وزملائه إلى مالطة إذن كان المفجر المباشر للثورة الذي حولها من حركة سلمية هادئة إلى ثورة عارمة عنيفة، القبض على زعماء الوفد ونفيهم. كان هذا التصرف الذي قامت به سلطات الاحتلال البريطاني قد حول حركة جمع التوكيلات للوفد المصري وسعي الوفد للسفر لمؤتمر الصلح؛ تلك الحركة التي ولدت يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨، من حركة سلمية إلى ثورة عنيفة. هنا؛ فقد كان الهدف الأول للثورة عودة الزعماء المنفيين والسماح لهم بالسفر إلى مؤتمر الصلح وقد رضخت سلطات الاحتلال قبل مرور شهر على الثورة وأفرجت عن الزعماء، وسمحت لهم بالسفر إلى باريس، وألغت القيود على سفر المصريين لخارج البلاد؛ استجابة لمطلب ألح عليه المصريون منذ انتهاء الحرب العظمى في نوفمبر سنة ١٩١٨. وهكذا تحقق أول انتصار للثورة بالإفراج عن الزعماء المنفيين وسفرهم لباريس وإقرار مبدأ حق المصريين في السفر للخارج. وقياسًا على ما حدث لأحمد عرابي وزملائه من زعماء الثورة العرابية الذين طال نفيهم لسنوات، فقد كان هذا نجاحا لثورة ١٩١٩ لا شك فيه وتحقيقا للهدف المباشر الذي انفجرت الثورة من أجله.

أما الأهداف الأهم والأعمق والأبعد للثورة فهي نفس أهداف النضال الشعبي المصري التي أخذت تتبلور تدريجيًا منذ أواخر القرن الثامن عشر، واستقرت منذ مطلع القرن العشرين في مطلبين محددين: الاستقلال والدستور، وكان المطلبان هدفين كبيرين لثورة ١٩١٩.

واتسم النضال من أجل تحقيق الاستقلال والدستور عبر عقود طويلة بالتدرج والمعارك الجزئية الصغيرة والمعارك الكبيرة التي تأخذ شكل الثورات مثلما حدث في الثورة العرابية، وطوال الحقبة الليبرالية استمرت الروح الثورية وتجددت في مواجهة استمرار الوجود العسكري البريطاني والامتيازات الأجنبية، كما تصاعدت الحركات الجماهيرية في مواجهة الانقلابات الدستورية وفي مقدمتها انقلاب إسماعيل صدقي سنة ١٩٣٠، الذي أنهته ثورة الشباب أو انتفاضة ١٩٣٥؛ تلك المعارك التي يتحقق من خلالها نصر هنا وآخر هناك وانتكاسة هنا أو هناك في الطريق من أجل أن نصل إلى الهدف في النهاية.

٦ وكانت ثورة ١٩١٩ واحدة من هذه المعارك بل أكبرها وأهمها، فماذا حقق الشعب فيها من خطوات في اتجاه تحقيق الهدفين الكبيرين لنضاله: الاستقلال والدستور؟

بعد أن هدأت الأمور واستقرت الأحوال، عادت الأمور للاحتقان مرة أخرى بنفي سعد ومجموعة من رفاقه إلى سيشيل عام،١٩٢١، واعتقال مجموعات أخرى من قادة الوفد ومحاكمتهم وإصدار أحكام بالسجن لمدد طويلة ضدهم، فعادت الأحداث للتصاعد مرة أخرى وردت بريطانيا بإصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، وصدر دستور ١٩٢٣.

عندها تجددت التساؤلات، وتعددت الإجابات باختلاف مواقف من يجيبون عن السؤال، خاصة أن الانقسامات والانشقاقات كانت قد تسربت إلى صفوف الوفد، ودارت في معظمها حول أسلوب التفاوض مع الإنجليز، والموقف من العروض البريطانية.

وهنا كان التساؤل: هل تصريح ٢٨ فبراير يحقق آمال المصريين وأهداف ثورتهم؟ وهل دستور ١٩٢٣ الذي وضعته لجنة «الأشقياء»، كما أطلق عليها الوفد، ما كان يحلم به المصريون؟

لقد نجحت الثورة في إلغاء الحماية على الرغم من إقرار مؤتمر الصلح لها، فكان لاستمرار الثورة أسابيع وشهورًا بعد الإفراج عن الزعماء أثره في إنهاء الحماية البريطانية على مصر، وسعي بريطانيا للدخول في مفاوضات لتحديد شكل علاقتها بمصر. وفي هذا السياق تشكلت لجنة ملنر البريطانية لتضع تصورًا من خلال استطلاع رأي،المصريين، ومرة أخرى كانت مقاطعة المصريين للجنة تعبيرًا عن استمرار الثورة ورفض المماطلة البريطانية، حتى أضحى هذا الموقف مثلا في الثقافة المصرية يشير إلى حدة المقاطعة والخصام، عندما توصف مقاطعة إنسان لآخر بأنها ولا مقاطعة لجنة ملنر»، أو عندما يقول شخص مبينًا موقفه من شخص آخر: «هأقاطعة مقاطعة لجنة ملنر». لقد انتجت الثورة بعد ثلاث سنوات الاعتراف باستقلال مصر من جانب واحد بصدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، الذي اعترفت فيه بريطانيا مملكة مستقلة بمصر مع التحفظات الأربعة التي شكلت انتقاصا من هذا الاستقلال، وكان التصريح تعبيرًا عن التوازن الذي انتهى إليه الحال بعد ثورة ١٩١٩، فاستمرار الحماية مستحيل، لكن حركة الجماهير أضعف من أن تحقق الاستقلال التام في ضربة واحدة، وقد أفرز الواقع الجديد دستورا للبلاد؛ دستور ١٩٢٣ الذي يعد من أفضل الدساتير في تاريخ مصر، على الرغم مما شابه من أوجه قصور، كذلك بدأت حياة نيابية تقوم على التعددية الحزبية.

وكانت الحياة النيابية ومبدأ المواطنة المصرية الذي صاغته ثورة ١٩١٩ من خلال شعارها الملهم الدين لله والوطن للجميع» من أهم المكاسب التي حققتها ثورة ١٩١٩ في طريق النضال من أجل الدستور والاستقلال. لقد حولت فكرة الاندماج الوطني وبناء دولة المواطنة التي بدأت خطواتها الأولى بتشريعات سعيد باشا في خمسينيات القرن التاسع عشر إلى واقع على الأرض، وعاشت مصر فيما بين ١٩١٩ و١٩٥٢ أزهى فترات احترام المواطنة والتعددية الدينية والثقافية، وعلى الرغم من محاولات بريطانيا من ناحية، والتيارات الرجعية في المجتمع من ناحية أخرى، العودة بالمجتمع إلى الانقسام الديني فإن هذه المحاولات باءت بالفشل، وهنا أشير إلى موقفين هما من نواتج ثورة ١٩١٩، عندما حاول الملك فاروق أن يؤدي اليمين الدستورية في الجامع الأزهر رفض مصطفى النحاس رئيس الوزراء إضفاء الطابع الديني على الدولة المصرية، وأصرَ أن يتم أداء اليمين في البرلمان الموقف الثاني أيضًا لمصطفى النحاس في وزارته الأخيرة عندما أتى محمد علي جناح مؤسس باكستان التي قامت في انشقاق ديني عن الهند العلمانية لزيارة مصر، فتعمَد أن يرسل له إبراهيم باشا فرج لاستقباله وفي محادثتهما الثنائية عاب عليه هدم وحدة الهند من أجل بناء دولة دينية، محققًا بذلك الأهداف الاستعمارية بتمزيق وحدة الدول على أسس على دينية وعرقية.

، وفي منتصف الأربعينيات أعاد مؤرخ الحركة الوطنية عبد الرحمن الرافعي طرح السؤال مجددًا في ختام كتابه عن ثورة،١٩١٩ وعلى الرغم من انتمائه للحزب الوطني الذي كان على خلاف مع الوفد فقد اتسم حكمه بالحياد والموضوعية ووضع المعايير التي يُقاس عليها مدى نجاح الثورة، وكان معياره «تعرف الحالة التي كانت عليها البلاد قبل الثورة والحالة التي وصلت إليها بعد الثورة، وهل تقدمت أم تأخرت وما علاقة الثورة بهذا التقدم أو التأخر؟».

وفي ضوء هذا المعيار انتهى الرافعي إلى نجاح الثورة بشكل عام، وكان مأخذه الأساسي إغفال قيادة الثورة للجانب الاقتصادي وإن كان قد أشار إلى أن الواقع الجديد بعد الثورة قد دفع تلقائيا في اتجاه تطور الاقتصاد؛ فقد كانت الثورة دافعًا لحلم راود المصريين منذ عقود؛ حلم بناء اقتصاد وطني في مواجهة الامتيازات الأجنبية ورغمًا عن وجودها فشهدت البلاد نهضة صناعية جديدة أثرت على المجتمع كله وعلى أفكاره، وكان ميلاد بنك مصر بشركاته ومؤسساته علامة على هذا التحول، وعلى مصر جديدة تولد.

كذلك كانت الثورة إيذانًا بميلاد جديد للصناعات الإبداعية الحديثة التي حرص على تطويرها طلعت حرب مؤسس بنك مصر، الذي يعد بحق الوليد الاقتصادي للثورة؛ فتطورت صناعة الكتاب والنشر وأنشأ بنك مصر مطبعة مصر لتطوير هذه الصناعة الثقافية المهمة، كما جاء ميلاد السينما المصرية تاليا للثورة من خلال أفلام محمد بيومي الروائية القصيرة، وجريدته السينمائية الموثقة للأحداث جريدة آمون السينمائية»، ثم كانت النقلة الثانية مع إنشاء طلعت حرب لإستوديو مصر الذي استوعب داخله جريدة آمون وحولها إلى جريدة مصر السينمائية، وأسهم في إنتاج عشرات الأفلام الروائية.

كما فتحت الثورة آفاق بعث جديد في الفنون تجلى في مجالات الفنون التشكيلية والموسيقى والغناء والمسرح، وتحول وضع هذه الفنون بعد الثورة والتحمت بالجماهير وقضاياها. وفي الآداب تطورت الكتابة الروائية والكتابة المسرحية بشكل لافت للنظر وارتبطتا بالتحولات الاجتماعية الجديدة وعبرت عنها؛ فبقدر ما ساهمت الأعمال الإبداعية في الحشد للثورة والتعبير عنها ما وإيصال رسالتها للجماهير، أو اتخذتها موضوعًا لها في السنوات التالية، بقدر كانت التغيرات المجتمعية التي أحدثتها الثورة في مصر دافعًا لتطور الإبداع الأدبي والفني.

كما كانت الثورة دافعة للانطلاقة السياسية للمرأة المصرية ولسعيها بقوة من أجل انتزاع حقوقها. فقد أدت المشاركة الإيجابية الفعالة للمرأة المصرية في الثورة والتي بدأت بالمظاهرة النسائية يوم ١٦ مارس ١٩١٩ إلى تغير جوهري في نظرة المجتمع إلى المرأة، كما حققت هذه المشاركة مكاسب عديدة للمرأة في مصر، وكانت تلك المظاهرة نقطة انطلاق لحركة نسائية وطنية، وانبثق عنها تأسيس لجنة سيدات الوفد بوصفها أول تنظيم سياسي نسائي في مصر الحديثة، ثم الاتحاد النسائي المصري بعدها بأربع سنوات.

وبعد وصول الضباط الأحرار إلى الحكم في يولية ١٩٥٢، وفي محاولات النظام الجديد إعادة النظر في تاريخ مصر السابق على يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢، أهيل التراب على ثورة ١٩١٩ وقيادتها التاريخية ورددت مناهج التعليم ما ورد الميثاق الوطني من أقوال حول فشل ثورة ١٩١٩.

في واستند الميثاق الوطني إلى عدة أسباب اعتبرها مسئولة عن فشل ثورة ١٩١٩؛ يقول الميثاق: إن ثورة الشعب المصري سنة ١٩١٩ تستحق الدراسة الطويلة؛ فإن الأسباب التي أدت إلى فشلها هي نفس الأسباب التي حركت حوافز الثورة في سنة ١٩٥٢، إن هناك ثلاثة أسباب واضحة أدت إلى

فشل هذه الثورة: أولا: إن القيادات الثورية أغفلت إغفالا يكاد أن يكون تاما مطالب التغيير الاجتماعي.

ثانيا: إن القيادات الثورية في ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء، وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية، ولم تستطع أن تستشف - من خلال التاريخ - أنه ليس هناك صدام على الإطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية.

ثالثًا: إن القيادات الثورية لم تستطع أن تلائم بين أساليب نضالها وبين الأساليب التي واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب في ذلك الوقت.

وهكذا انتهت الثورة بإعلان استقلال لا مضمون له وبحرية جريحة تحت حراب الاحتلال، وزادت المضاعفات خطورة بسبب الحكم الذاتي الذي منحه الاستعمار والذي أوقع الوطن باسم الدستور في محنة الخلاف على الغنائم دون نصر؛ وكانت النتيجة أن أصبح الصراع الحزبي في مصر ملهاة تشغل الناس، وتحرق الطاقة الثورية فى هباء لا نتيجة له. وكانت معاهدة سنة ١٩٣٦ التي عقدت بين مصر وبريطانيا، والتي اشتركت في توقيعها جبهة وطنية تضم كل الأحزاب السياسية العاملة في ذلك الوقت بمثابة صل الاستسلام للخديعة الكبرى الذي وقعت فيها ثورة سنة ١٩١٩؛ فقد كانت مقدمتها تنص على استقلال مصر، بينما صلبها في كل عبارة من عباراته يسلب هذا الاستقلال كل قيمة له وكل معنى».

كان هذا تحليل الميثاق الذي سيطر على مناهج التعليم لسنوات على الرغم من التراجع الجزئي للنظام عنه بعد هزيمة يونية ١٩٦٧، فهل حقا فشلت ثورة ١٩١٩؟

السبب الأول من وجهة نظر الميثاق الوطني يكمن في أن القيادات الثورية أغفلت إغفالا يكاد أن يكون تامًا مطالب التغيير الاجتماعي.

لا توجد ثورة في التاريخ تغفل البعد الاجتماعي؛ فلكل ثورة مطالبها الاجتماعية لكن هذه المطالب تختلف باختلاف طبيعة القيادة الثورية وموقعها الطبقي الذي تتحدد على أساسه أهداف الثورة. ويبدو أن الميثاق كان يقصد بالبعد الاجتماعي تبني مطالب العمال والفلاحين والطبقات الشعبية في التغيير، ولم تدع قيادة ثورة ١٩١٩ فى أي لحظة أنها تقود ثورة من أجل التغيير الاجتماعي أو أنها تحرك الجماهير من أجل الاشتراكية أو العدالة الاجتماعية حتى نقول إنها فشلت بسبب غياب هذا البعد عنها، لقد أعلنت قيادة الثورة أهدافها منذ البداية باعتبارها ثورة وطنية ديمقراطية تسعى لتحقيق الاستقلال والدستور، وبعدها الطبقي كان واضحًا في حدود المطالبة بنصيب أكبر في السوق المحلية على حساب الامتيازات التي يتمتع بها الأجانب؛ الأمر الذي تحقق جزئيًا وعلى مراحل متوالية طوال الحقبة الليبرالية. أما السبب الثاني للفشل - وفقًا للميثاق - فكان غياب البعد العربي؛ فالقيادات الثورية في ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء، وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية، ولم تستطع أن تستشف - من خلال التاريخ - أنه ليس هناك صدام على الإطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية».

لكن هل يمكن أن نأخذ هذا على القيادة الثورية سنة ١٩١٩؟ إن نضال الشعب المصري منذ أواخر القرن الثامن عشر كان نضالا مصريًا خالصًا، وكان مفهوم النضال القومي لدى المصريين يعني النضال القومي المصري، ولم يكن هناك هدف مشترك يجمع بين نضال الشعب المصري والنضال الوطني في سوريا موطن الدعوة القومية العربية، بل كان هناك عدو مختلف لسنوات طويلة، فبينما كان المصريون يناضلون ضد الاستعمار الأوروبي المباشر (الإنجليزي) منذ ١٨٨٢،

وضد التدخل الأجنبي عمومًا قبل،١٨٨٢، كان السوريون يناضلون ضد الاستعمار العثماني الذي ظهرت الحركة القومية العربية في مواجهته، وكانت الحركة العربية تتلقى الدعم من القوى الأوروبية في مواجهة العثمانيين، ولم يبدأ النضال الوطني في دول المشرق العربي ضد الاستعمار الأوروبي (البريطاني والفرنسي) إلا في مطلع العشرينيات بعد انتهاء مؤتمر الصلح وفرض الانتداب على الأملاك العثمانية السابقة في العالم العربي، ولم تكن الرابطة الثقافية بين المتكلمين بالعربية تعني أن هناك أمة عربية واحدة، ومع ذلك لم تغب فكرة التضامن النضالي قط عن قادة الحركات الوطنية في مختلف بلدان العالم العربي طوال تلك المرحلة. أما السبب الثالث فكان عدم قدرة القيادات الثورية على أن تلائم بين أساليب الأساليب التي واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب في ذلك الوقت. والحقيقة أن ثورة ١٩١٩ أنتجت أشكالًا نضالية متنوعة ومتعددة ومتغيرة بتغير الظروف طوال الحقبة الليبرالية، وكانت التوكيلات الشعبية للوفد أول هذه الأشكال النضالية. وأهمها. لقد كانت التوكيلات وسيلة لحشد الجماهير والدعاية لأهداف الثورة ولتشكيل مجموعات منظمة نشطت لعدة أشهر ونجحت في تفجير الثورة والاستمرار بها إلى أن أرغمت السلطات البريطانية على التراجع، كما كانت في نفس الوقت بمثابة عقد وكالة واتفاق بين الشعب وقيادته، يلزم هذه القيادة بعدم الخروج عن حدود الوكالة، ويحدد أهداف النضال ويقيد إمكانات التنازل، وقد ظهر ذلك جليًا عندما قبل سعد زغلول نضالها وبين تشكيل الوزارة بعد الانتخابات البرلمانية التي اكتسحها الوفد عقب صدور دستور رد سعد على الملك فؤاد في خطاب قبوله تشكيل الوزارة معلنا أنه ١٩٢٣، لقد الله يقبل تشكيل الوزارة في حدود الشروط التي تقبلها تقبلها الأمة. وطوال مرحلة الثورة وما أعقبها استخدمت كل الأشكال النضالية وفقًا للظروف؛ فلجأت إلى أشكال الاحتجاج السلمي كجمع التوقيعات على العرائض والخطابات المفتوحة للسلطات وللمجتمع الدولي والإضرابات والاعتصامات والتظاهر السلمي والمقاطعة بما فيها حملات مقاطعة البضائع الأجنبية، كما لجأ الثوار إلى الأشكال العنيفة كقطع السكك الحديد وخطوط التلغراف والطرق البرية والأعمال المسلحة المختلفة ضد قوات الاحتلال، ووصل الأمر في نهاية الحقبة الليبرالية إلى اتباع أسلوب الكفاح المسلح المنظم ضد الوجود البريطاني في منطقة القناة وأبدعت الثورة سنة ١٩١٩ وفي ذروة الأحداث شكلًا نضاليًا جديدًا تمثل في إعلان استقلال بعض المدن وإدارتها إدارة ذاتية، وأشهرها جمهورية زفتى.

كان المصريون يبتكرون الأشكال النضالية الملائمة لكل مرحلة حقًا لم يحققوا نصرًا بالضربة القاضية لكنهم نجحوا في انتزاع مكاسب تدريجية. أما الصراع الحزبي الذي يعتبره الميثاق الوطني ملهاة تشغل الناس، وتحرق الطاقة الثورية في هباء لا نتيجة له»، فأمر طبيعي في النظم الديمقراطية وأظن أنه ميزة أساسية من مميزات الحقبة الليبرالية في تاريخنا وليست عيبا. لقد تشكل الوفد المصري وفي البلاد حزب واحد متبق من مرحلة ما قبل الثورة أعني الحزب الوطني، وكان الوفد مجمعًا للتيارات السائدة في الساحة السياسية المصرية،وقتها وسرعان ما بدأت الانقسامات داخل الوفد المصري حول المواقف السياسية، فكان الانقسام الأكبر بخروج المجموعة التي شكلت حزب الأحرار الدستوريين، وتوالت الانقسامات داخل الوفد حتى إن معظم الأحزاب المؤثرة خلال الحقبة الليبرالية أو قيادتها على الأقل خرجت من جعبته، ما عدا الحزب الوطني والحزب الديمقراطي الذي تأسس من مجموعة من انضمَ أبرزهم إلى حزب الأحرار الدستوريين فيما بعد، ثم الأحزاب العقائدية: الحزب الاشتراكي ثم الحزب الشيوعي وحزب مصر الفتاة المتأثر بالفاشية. أما جماعة الإخوان فقد نشأت في أحضان شركة قناة السويس وسعت لضرب قيم الوطنية المصرية وشق وحدة الأمة مسخرة

نفسها أداة في يد القصر والحكومات المعادية للشعب، إلى أن وضع نظام يولية أسس الحكم الشمولي مصادرًا الحق التعددية والتنظيم المستقل، فكان طبيعيًا أن يرى الميثاق في الحزبية شيئًا في معيبًا.

الشباب بعد كل هذا تجيء الإجابة عن السؤال في ضوء ما تحقق من أهداف:

لقد نجحت ثورة ١٩١٩ في الانتقال بمصر إلى عصر جديد استمر على الأقل حتى عام ١٩٥٢، وكانت له آثاره الممتدة في الحراك الثقافي والاجتماعي في العقدين الأولين من النصف الثاني من القرن العشرين، وعلى الرغم من التراجع الذي شهدته بعض مكاسب الثورة فما زال حلم دولة المواطنة والقانون والمشاركة السياسية واستقلال القرار الوطني هدفًا واجب التحقيق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قائمة المراجع

- أحمد شفيق: مذكراتي في نصف قرن، ج. مجلتي للطبع والنشر، القاهرة، د.ت..
- بدر الدين أبو غازي مختار حياته وفنه، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٤٩.
- بدر الدين أبو غازي المثال، مختار، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٤.
- تيودور روذستين: تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده، تعريب: علي أحمد شكري، القاهرة، ١٩٢٧.
- سعد زغلول: مذكرات سعد زغلول، ج،١١، إشراف وتحقيق وتقديم لطيفة محمد سالم دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٥.
- عباس محمود العقاد: سعد زغلول سيرة، وتحية مطبعة حجازي، القاهرة،.١٩٣٦ • عبد الخالق لاشين: سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ودار العودة، بيروت، ١٩٧٥.
- عبد الرحمن الرافعي: ثورة ١٩١٩ - تاريخ مصر القومي من ١٩١٤ إلى ١٩٢١، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.
- عبد الرحمن الرافعي: في أعقاب الثورة المصرية ثورة ١٩١٩، ج ١، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧
- عبد العظيم رمضان تطور الحركة الوطنية في مصـ من ١٩١٨ إلى ١٩٣٦، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦..
- عماد أبو غازي حكاية ثورة ١٩١٩، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،.٢٠٠٩.
- فخري عبد النور: مذكرات فخري عبد النور ثورة ١٩١٩ ودور سعد زغلول والوفد في الحركة الوطنية، تحقيق: يونان لبيب رزق، دار الشروق، القاهرة،.١٩٩٢.
- فؤاد كرم النظارات والوزارات المصرية: إنشاء اول هيئة نظارة في ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ حتى قيام الجمهورية في ١٨ يونية ١٩٥٣، الجزء الأول، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩.
- كريم ثابت: سعد في حياته الخاصة، القاهرة، ١٩٢٩.
- محمد أحمد أنيس التاريخ السري لثورة ١٩١٩، دار الشروق، ٢٠١٩.
- ،• محمد صبري السوربوني الثورة المصرية من خلال وثائق حقيقية وصور التقطت أثناء الثورة، ترجمة مجدي عبد الحافظ وعلي كورخان، ج. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.
- محمد صبري السوربوني: الثورة المصرية من خلال وثائق حقيقية وصور التقطت أثناء الثورة، ترجمة مجدي عبد الحافظ وعلي كورخان، ج. ٢، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٩
- محمد علي حماد سيد درويش حياة نغم، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.
- مصطفى النحاس: مذكرات النفي، تحقيق: عماد أبو غازي، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٩.
- يونان لبيب رزق وآخرون ثمانون عامًا على ثورة ١٩١٩، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة،. .٢٠٠٠

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

تقديم

مشهد افتتاحي قبل الثورة

في الداخل

الفصل الأول الثورة أيام وحكايات

١- يوم ١٣ نوفمبر... يوم تغير فيه التاريخ

٢- ٢٣ نوفمبر وميلاد الوفد المصري

٣- نوفمبر وديسمبر مصر تتحرك

٤- يوم ١٣ يناير ١٩١٩... خطاب سعد الأول

الشعب

٥- يوم ٦ فبراير ١٩١٩... «ووقف أحد السامعين»

٩- يوم ٩ مارس والأيام التالية

٧- ٧ ابريل... انتصار الإرادة

٨- إبريل ١٩٢١... موجة جديدة من الثورة

٩- ٢٣ ديسمبر ١٩٢١... النفي الثاني

الفصل الثاني شعب وقائد

سعد والسياسة

١- حكاية بيت الأمة

٢- إثبات الموقف

٣- سعد في المنفى

٤- حوار مع سعد زغلول في لندن

٥- سنوات الشدة والإرهاب

٦- وزارة سعد الأولى والأخيرة

الفصل الثالث: وجوه في الثورة

١- عبد الرحمن فهمي الرجل الذي قاد سعد الثورة من خلاله

هدى شعراوي... إيزيس القرن العشرين

٣- فخري عبد النور... الوطني الغيور
٤- محمد صبري السوريوني... وتوثيق الثورة
٥- رئيس الحكومة الذي ساند الثورة
٦- ابن القباقيبي... حكاية طفل مصري ثائر
٧- فتحي رضوان يكتب «في بيتنا زعيمة»
الفصل الرابع: ثورة ١٩١٩ والإبداع
١- السيد درويش ثورة اللحن ولحن الثورة
٢- مختار ابن الثورة ومخلدها
٣- وعادت الروح
٤- نجيب محفوظ موثقا للثورة
مشهد ختامي ميلاد مصر جديدة
قائمة المراجع
الفهرس..